الفصل الثاني
عوامل نشوء الدولة الربقية في منطقة الخليج العربية

لقد أسهم العديد من العوامل في نشوء وتكوين بلدان الخليج العربية بصيغتها وحدودها السياسية الحالية. ومن أهم هذه العوامل ما يلي:

العوامل التاريخية:

حضارات الجزيرة العربية القديمة

مازالت الدراسات والبحوث الأثرية للجزيرة العربية في فترة ما قبل الإسلام في حالة بدائية، ونتيجة لذلك فغالبا ما تكون هذه البحوث مجرد مسائل فرضية وجدلية في أحسن حالاتها. فمنذ منتصف القرن التاسع عشر كان هناك القليل من الناس الذين يملكون القدرة والآليات اللازمة لتقصي تاريخ المنطقة وأثارها. فقد جعلت قلة المياه، وصعوبات التنقل في الصحراء، والعداء المنتشر بين القبائل حتى حقبة الأربعينيات، الاضطلاع بالبحوث المنتظمة أمرا أشبه ما يكون بالمغامرة . بالإضافة لذلك، لا يعوف حتى وقتنا هذا سوى القليل عن الجزيرة العربية خاصة فيما يتعلق بما وراء حدودها الساحلية. إن الاكتشافات الأثرية الأولية، كانت في كثير من الأحيان اكتشافات تتم وبمحض الصدفة للمكتشفين المتشوقين لتقصي هذه الأرض المعزولة وتمثيل تضاريسها على الخرائط .

وكان أقدم شاهد على وجود الإنسان المتحضر في هذه المنطقة هو الأدوات التي صنعها ذلك الإنسان في شمال الجزيرة العربية والتي وجدت على بعد 90 كيلومتر شمال مدينة الظهران على ساحل الخليج . وبالرجوع لتتبع تاريخ هذه الأدوات إلى 5000 سنة قبل الميلاد نجدها تتطابق مع ما كان يطلق عليه ثقافة العبيد في حضارة ما بين النهرين، وهم أول من زرعوا واستوطنوا الهلال الخصيب وهم أسلاف السومريين، أول بشر معروفين بتطوير ثقافة وحضارة راقية. ولكون ثقافة العبيد تكونت في ما بين النهرين، فمن المؤكد أن هذه الحضارة قد وصلت إلى الجزيرة العربية من الشمال. وإذا ما كانت الجزيرة العربية هي المكان الأصل ، فإن ذلك يعني أن أول

زراعيين معروفين في المنطقة هم المهاجرون من الجزيرة العربية. وهذا ما يدعم الأسطورة السومرية التي تقول إن الزراعة أتت إلى ما بين النهرين بواسطة صائدي الأسماك من الخليج.

منذ قرابة عام 4000 ق.م إلى عام 2000 ق.م سادت حضارة دلمون الساحل الشرقي للجزيرة العربية الممتد من الكويت الحالية إلى البحرين وامتدت حوالي 90 كيلومترا إلى داخل واحة الهفوف. وفي أوج عنفوان مجدهم في سنة 2000 ق.م سيطر الدلمون على الطريق إلى الهند وكانوا همزة وصل تجارية بين حضارات وادي نهر السند وحضارات ما بين النهرين. ويعد سكان ما بين النهرين منطقة الدلمون منطقة مقدسة وكذلك سكانها أيضا مقدسون بصورة تفوق الوصف. وبقايا الحضارة التي وجدت في عمان وأبو ظبي يمكن أن تكون وثيقة الصلة بحضارة الدلمون. ففي أبو ظبي توجد مباني حجرية يعود تاريخها لما قبل العصر البرونزي، والمستوطنات ذات القباب أو المقابر المتقنة توحي بأناس صناعيين وحضارة زراعية متطورة.

وكانت الجزيرة العربية قليلة السكان بالداخل ، فحتى قرابة عام 3000 ق.م كانت الأراضي الداخلية، مخضرة بدرجة كافية لسد احتياجات مزارعي الحبوب والرعاة في الشمال ومجتمعات الصيد المتجمعة في الجنوب . وبقيت الأمور كذلك حتى تغيرت الظروف المناخية وزحفت الصحراء تدريجيا نحو الأراضي الزراعية التي تطعم البشر والحيوانات ، لدرجة أجبرت السكان على التجمع في داخل الأراضي ذات الموارد المائية المحدودة . وتزايد القسر البيئي هذا حفز الكثير من السكان على الهجرة إلى الأراضي المضيافة أو الملائمة في الشمال والشمال الشرقي.

الملاحة القديمة في الخليج

تعد الملاحة القديمة في الخليج من أكثر الأعمال المتسمة بالمغامرة التي ألقت بظلالها على الأراضي القاحلة وأوجدت "المغامرات البحرية" التي

طورت بصورة ملحوظة التبادل التجاري والثقافي في العهد القديم. وعلى الرغم من أن الخليج شهد فترات متعددة من الانخفاض النسبي في نشاطه البحري، إلا أنه دائما ما يعد من الطرق الرائدة بين طرق التجارة العالمية العظمى. فعند أقصى نقطة في الشمال ينتهي الخليج بالقرب من التقاء نهري دجلة والفرات، وتصدر البضائع عبر الخليج من الجنوب ولاحقًا من شرق أفريقيا وشرق آسيا واصلة ما بين النهرين وبابل، وهي دول رغم غنى خصوبة أرضها إلا أنها تفتقد إلى الحجارة والمعادن والأخشاب الضرورية لدعم الحضارات المتطورة، والتجارة البحرية أو الملاحية على الخليج في هذه المناطق موثقة منذ العصر الألفي الثالث قبل الميلاد.

وتشير بيانات العصر الألفي الثاني الأكثر دقة إلى أن حضارة ما بين النهرين كانت في ذلك الوقت تستورد كثيرا من وارداتها الاستهلاكية من مدن في ثلاث دول في اتجاه الخليج هي : الدلمون، والتي تقع رئاستها في البحرين، ماجان الواقعة على المنحنى الساحلي لعمان الحالية وكانت ممتدة على امتداد ساحل عمان ، وملوخا وقد كانت في الأزمنة القديمة جدا إحدى مناطق وادي نهر السند. وقد كانت ماجان في البداية تعمل بصورة أولية كمركز لتوزيع السلع والبضائع الواردة إلى ملوخا. وتتضمن واردات ما بين النهرين النحاس، البلور، العاج، وبرادة الحديد الأحمر وهذه المواد ربما يكون مصدرها جزيرة أبو موسى. وكان من ضمن هذه القائمة أيضا البصل، البامبو، الخشب والأحجار الكريمة، اللؤلؤ. وحيث إن أفضل مخزون للؤلؤ يتواجد بين رأس قطر والشارقة، فمن المحتمل حتى في ذلك الزمن السحيق أن تكون عملية اصطياد اللؤلؤ صناعة محلية. ثم بعد ذلك أصبحت الدلمون مركزا تجاريا لكل من ماجان وملوخا. إلا أن قوة الدلمون التجارية بدأت في الانحسار في حوالي 1800ق.م، وذلك نتيجة لعملية غزو وتدمير حضارة وادي نهر السند التي عطلت التجارة في المنطقة لعدة قرون.

وقد ازدهرت القرصنة في الخليج خلال فترة انحطـــاط الدلمـــون واضطر البحارة والتجار العمانيون بحكم الحاجة إلى تركيز نشـــاطهم فـــي منطقة ظفار، وهي المنطقة الجنوبية لسلطنة عمان الحالية، وكانت ظفار هي إحدى ثلاثة منتجين فقط للصمغ عالي الجودة والبخور. ويعد البخور عنصـر مهم جدا في بعض التقاليد السامية والوثنية، وكان يحرق ويقـــدم كقرابيـــن للآلهة، كما كان يستخدم بكثرة في احتفالات الطقوس الدينية والتحنيط فـــي مصر. ولقد استهلك أحد الفراعنة حصاد عام كامل من أجل تجهيز جنـــازة زوجته. والبخور له أيضا خصائص علاجية، وكان يستخدم كترياق للســموم ولإيقاف النزيف . وكان البخور يصدر من ظفار عن طريق البحر من ميناء (سمهرام) "بالقرب من مدينة صلالة " أو ينقـــل بواســطة الجمـــال عـــبر حضرموت ومن ثم إلى الدرب الصحراوي الذي يخترق الحجاز (المنطقـــة الغربية الساحلية للمملكة العربية السعودية).

ولم تتوقف تجارة الخليج كليا بانحطاط الـــدلمون، وقد كتـــب أحـــد قواد الإسكندر الأكبر في يومياته عن رأس عربـــي يســـمى ماكيتـــا (رأس موسندام) والذي تصدر منه القرفة . وفي نهاية القرن الثالث قبـــل الميـــلاد، ارد ه ت تجارة الخليج بصورة طفيفة، وتحولت الجرعاء المقابلة للبحريـــن عـ ـراضي العربية الرئيسة، لتكون أهم مركز تجاري في المنطقة ، كمـــا أنها أصبحت المركز التجاري المحلي بالنسبة للممالك ذات الثراء الخرافـــي في جنوب غرب الجزيرة العربية، والتي من بينها سبأ وحمير. وفـــي ذلـــك الوقت فإن دولة ماجان العمانية أصبحت تعرف بالمزون من قبل الإيرانيين ، الذين انخرطوا باطراد في تجارة الخليج . وخلال فـــترة حكـــم الساســـانيين والتي بدأ ملكهم لإيران منذ سنة 228 بعد الميلاد وصلت تجـــارة الإيرانيـــن إلى ذروتها، واستمرت كذلك حتى فتح العرب المسلمون إيران فـــي القـــرن السابع.

وبحلول القرن الثالث بعد الميلاد كانت الأقاليم الساحلية بشمالي عمان تحت السيطرة الإيرانية. وفي القرن الرابع احتل الإيرانيون البحرين، ولعل هذا الاحتلال هو الذي سوغ لشاه إيران محمد رضا بهلوي وكذلك حكم آية الله روح الله الخميني الادعاءات الحالية بتبعية البحرين لإيران . وعندما غزا الملك **خوسرو الأول** اليمن واحتلها في سنة 520، ضم جنوب عمان إلى هذا الاحتلال . ولقد درب الإيرانيون مزارعي هذه البلدان المحتله على استعمال نظام ري يستخدم القنوات (الفلجان)، وهو نظام ري بدائي تتفرع فيه قنوات أرضية تدفق فيها المياه المستخرجة من جوف الإرض تحملها إلى عدة أميال لري الأراضي الزراعية . ومع أن الاحتلال الإيراني قد انحسر فإن الزراعة في عمان ما تزال تعتمد بصورة كبيرة على هذا النظام.

ولم تنل عمان أبدا السمعة التي نالتها اليمن لأنها حرمت كليا من الوصول مباشرة إلى الغرب وذلك بسبب صحراء الربع الخالي الشاسعة التي شكلت حاجزا طبيعيا بين عمان والسواحل الغربية . ومن الواضح على أي حال، أن العمانيين كانوا في فترة ما قبل الإسلام نشطون في التجارة البحرية ذات المدى الطويل بين الشرق والغرب كما أصبحوا كذلك لاحقا، ومن هنا يتضح أن عرب الخليج خصوصا العمانيون أدوا عملا مهما في تطوير التجارة القديمة.

الجزيرة العربية قبل الإسلام

حتى مجيء الإسلام كانت القوى السياسية والتجارية السائدة في شبه الجزيرة العربية هي القوى الموجودة في الجنوب – عمان وممالك اليمن المندثرة. وبعيدا عن المستعمرات التجارية العمانية والإيرانية على ساحل الخليج ومحطات قوافل الحجاز التي تحولت إلى مدن مستقلة، مثل مكة ويثرب (المدينة)، فإن الكثير من السكان كانوا بدوا رحلا. وفي الثلاثة قرون الأولى بعد الميلاد، كان هناك انتقال قبلي كثيف عبر شبه الجزيرة العربية.

وقد استهدف هذا الانتقال الهجرة إلى عمان وساحلها الأدنى وصناعاتها المحلية البدائية وتجارتها البحرية . ومع أن أسباب هذه الهجرات غير واضحة، إلا أنه قد يكون من المؤكد أن انهيار سد مأرب في شمال شرق عاصمة اليمن الحالية (صنعاء) الذي كان يروى أراضي شاسعة،والاضطرابات الاجتماعية الكبيرة التي كانت سائدة آنذاك ، وتزايد أعداد السكان ، وهجمات البدو على الحضر التي أصبحت أمرا مكررا، كل ذلك أسهم في حدوث ذلك الانتقال والهجرات.

وانتقلت العديد من قبائل البدو الشمالية إلى الجنوب ، محدثين الكثير من الرعب للبدو الجنوبيين، الذين أجبروا قبلا على البقاء لقلة الموارد الطبيعية المحلية. ومنذ ذلك الزمان بدأت تقاليد معرفة الأصول القبلية تأخذ شكلا عمليا، وهو التقليد الذي كانت له نتائج سياسية حادة بالنسبة للخليج فيما يخص الاختلافات بين العرب الشماليين والعرب الجنوبيين. العرب الجنوبيون دخلوا فترة الإسلام بشعور واضح بالنسبة للتميز العرقي بينهم وبين كل العرب الآخرين، وهو التميز الذي يوضح الفروق في اللغة، العادات، والملامح. والاعتقاد الذي لم يزل شائعا بين الناس هو أنه على الرغم من أن كل العرب ينحدرون من سام بن نوح، فإن العرب الجنوبيين "الأنقياء" "القحطانيين" ينحدرون من قحطان بن يعرب أو هود، كما يسمى في بعض الأحيان، في حين أن العرب الشماليين "يسمون بالعدنانيين ، وفي عمان يطلقون عليهم أحيانا النزاريين" منحدرين من إسماعيل من صلب عدنان. ومع أنه توجد في معظم الدول العربية بعض الفئات العربية، خصوصا تلك الفئات ذات المجتمعات القبلية، التي تعرف أو تعتقد أنها تعرف إلى أي من المجموعتين تنتسب لكنها قليلة الاهتمام بذلك ، إلا أن هذا التقسيم أمر ذو أهمية كبيرة بالنسبة للعمانيين وإلى عرب جنوب الخليج ، خاصة وأن العديد من الضغائن والعدوات التي حدثت في القرن الثامن عشر والتاسع عشر والعشرين يمكن أن تعزى إلى ذلك.

تتميز المعلومات التاريخية المحددة والموثقة عن منطقة الخليج للمدة الزمنية الممتدة من وقت اندثار الحضارات العظمى القديمة حتى مجيء الإسلام بالقلة وندرة الوجود ، إلا أن هناك بعض المعلومات القليلة المتوفرة عن عمان لأنها كانت أكثر منطقة متطورة على الساحل في ذلك الزمان . وحسب هذه المعلومات، هاجرت قبيلة الأزد إلى عمان في القرن الثاني الميلادي. وأخذ أئمة القبيلة المهاجرة لقب "أزدي" كجزء أخير من ألقابهم. كان الجلنديين حكاما لعمان في عهد غزو الآزديين وكانوا خاضعين للإيرانيين. ونتيجة لأنه كان لدى الأزديين قوة كبيرة فقد تمكنوا من إخراج الإيرانيين لفترة وجيزة. لكن سرعان ما لبث الجلنديون أن تمكنوا من العودة إلى الحكم وحكموا الساحل مرة أخرى وذلك بالتعاون مع الإيرانيين، في حين تراجع الأزديون وانتقلوا إلى ما وراء الجبال، وهذا أوجد تقسيما داخليا ظل سائدا حتى الوقت الحاضر. وتفيد المصادر أو الشواهد الأثرية المتاحة أيضا ، أنه في القرن الثاني أو الثالث حدثت هجرات رئيسية إلى "واحة البريمي" لقبليتين عدنانيتين هما، بني سيد وبني عبدالقيس. وقد أنشأ بنو عبدالقيس لحكامهم ، ميناءا رئيسيا على الخليج في القرون الوسطى.

وكان معظم عرب شبه الجزيرة العربية يعبدون نوعا من الثالوث النجمي. وفي الأقاليم الجنوبية – اليمن وعمان – يوجد أيضا عرب يهود، ومسيحيون ، وزرادشتيون نتيجة لتواجد الإيرانيين . وقد جاء اليهود إلى اليمن عبر الحجاز، عندما هربت أعداد غفيرة منهم إلى الجنوب بعد تدمير هيكل القدس على أيدي تيتوس في سنة 70 بعد الميلاد. أما المسيحية فقد جاءت من خلال جهود بعثة Theophilus Indus التبشيرية وهي أهم بعثة مسيحية جاءت إلى جنوب شبه الجزيرة العربية، حيث أسست ثلاث كنائس: في صنعاء، وعدن، وعلى الخليج والتي ربما تكون في صحار.

مجيء الإسلام وتكوين الدولة الإسلامية

تولى النبي محمد ﷺ خلال حياته، كلا من القيادة الدينية والمدنية للمجتمع المسلم، على أساس أن مفهوم الإسلام هو السبيل الجامع الشامل لحياة الإنسان والمجتمع. ولقد أوضحت تعاليم الشريعة الإسلامية أن الله بين للنبي محمد ﷺ مبادئ ثابتة لضبط السلوك السليم، وعلى ضوء هذه المبادئ فإن المسلم ملزم على العيش بالسلوك الموصوف في الشريعة وعلى المجتمع أن يلتزم بأن يكون مجتمعا إنسانيا طبقا لتعاليم الشريعة . والإسلام تقليديا يعترف بتداخل الحياة الدينية والمدنية وبعدم التفرقة بين الدين والدولة، كما يفرق بينهما القانون الوضعي .

بعد وفاة النبي محمد صلى الله عليه وسلم في سنة 622م ، اختار قادة المجتمع الإسلامي ، أبا بكر الصديق للخلافة ، وهو والد السيدة عائشة زوج الرسول ﷺ ، وأحد صحابته الأوائل . ولقد كان بعضهم يفضل عليا، لكونه من بني هاشم، وابن عم الرسول ﷺ وزوج ابنته فاطمة. وعلي والموالون له (وهؤلاء الموالون يسمون شيعة علي أو حزب علي) اعترفوا في آخر الأمر باختيار الجماعة، لكن فقط بعد وفاة فاطمة. الخلفاء الاثنان الآخران، الصحابي عمر بن الخطاب الذي تولى الخلافة في سنة 634 والصحابي عثمان بن عفان الذي تولى القيادة في سنة 664 تمتعا بمبايعة جميع أفراد المجتمع.

وبعد فترة من حكم الخليفة عثمان بن عفان بدأ عدم الرضى عن حكم عثمان والرغبة في معارضته تعلو في مناطق عديدة من الإمبراطورية الإسلامية . فقراء القرآن أعربوا عن تضرر مصالحهم نتيجة لتدوين القرآن الذي أمر به الخليفة عثمان . فبعض أهل الكوفة في العراق ، رفضوا قبول هذا الإصلاح. الآخرون اتهموا عثمان بالمحاباة لبني أمية وتعيين العديد منهم في الوظائف الرسمية مما تسبب في وجود امتعاض لأولئك الذين لديهم

دعاوى بالأحقية مبنية على الأسبقية والولاء القديم. كما أن بعضهم الآخر عارض ما عده فسادا في التدابير المالية أثناء خلافة الخليفة عثمان. ومع أن الخليفة عثمان نفسه من المسلمين الأوائل وزوج بنتي الرسول ﷺ ، إلا أنه ينحدر من بني أمية، وهي عشيرة من قريش، كان أفرادها من الأعداء الرئيسيين لآل النبي محمد ﷺ بمكة كما قاوم بنو أمية دعوة النبي صلى الله عليه وسلم لسنوات طويلة.

وأصبح علي الذي لم تكلل مطالبته بالخلافة بالنجاح ، بؤرة ثرية لعدم الرضا. ففي سنة 665 وبعد خمس سنوات من الاضطرابات ، والتي تعرف في التاريخ الإسلامي بالفتنة ، قتل بعض الجنود الساخطين الخليفة عثمان . وبعد مقتل الخليفة عثمان رست الخلافة أخيرا على علي. لكن عائشة زوجة النبي صلى الله عليه وسلم ، اعترضت وساعدت على حشد المعارضة لخلافة علي مطالبة بالثأر لمقتل عثمان ومعاقبة قاتليه .

ولقد أصر القتلة على أن الخليفة عثمان بحكمه غير العادل قد تخلى عن حقه كخليفة واستحق الموت. والخليفة علي الذي اعتمد وضعه السياسي على دعمهم أجبر على تأييدهم مما جعله يعلن من عاصمة حكمه الكوفة رفضه تأنيب ومعاقبة القتلة. وعند هذه النقطة، فإن معاوية حاكم الشام وهو واحد من بني أمية، رفض الاعتراف بسلطة الخليفة علي ودعا للانتقام من قتلة قريبه الخليفة عثمان. وقرر الخليفة علي أن يخضع معاوية والتقى الطرفان في موقعة صفين التي قبل أن تحسم نتيجتها لصالح أي من الطرفين، رفع جنود معاوية نسخ من القرآن على أسنة رماحهم، داعين أن تخضع المسألة للتحكيم على أساس كتاب الله وسنة نبيه . ووافق الخليفة علي على هذه الآلية، واختار كل جناح مندوبه من المحكمين .

ومع أن كثيرا من مؤيدي الخليفة على وافق على آلية التحكيم إلا أن بعض منهم رفضوا فكرة أن يخضع الخليفة الذي خلف الرسول ﷺ

وقائد المجتمع، لسلطة الآخرين. وتأكيدا لموقفهم هذا، دعوا إلـــى وجـوب تخلى الخليفة علي عن سلطته كخليفة. وكان جدالهم الذي حاجوا به هو أنـــه وطبقا للتعاليم القرآنية، فإن الخارجين على الخليفـــة يجـب أن يخضعـوا للطاعة بالقوة، وعليه فإن تحكيم النزاع مع الخارج معاوية يتنافى مع ما ورد في القرآن الكريم بهذا الخصوص . إضافة لذلك فإنهم رأوا أن مسألة أحقيـة معاوية في الحكم تمت تسويتها عن طريق الحرب أثناء الفتنة. وعندما أصـر الخليفة علي على موقفه، انسحبت هذه المجموعة والتي عرفت فيمـــا بعـد بالخوارج، إلى حروراء بالقرب من الكوفة واختارت من بين أفرادها قـــائدا خاصا بها .

ولم يكسب الخليفة علي التحكيم ، ورفض قبول القـــرار لكنـــه لـم يستنكر مبدأ التحكيم. حول هذه النقطة أصبح الخوارج متأكدين، أن المصالح الشخصية وليست المبادئ هي التي تدفع الخليفة علي ، وتضاءل دعم مؤيدي الخليفة علي وأتباعه له. ولقد حاول الخليفة علي مهاجمة الشام، لكن معاويـة صده، كما تورط في عدة معارك مع الخوارج، بما فيها مذبحة في نـــهروان قتل فيها معظم الخوارج. وبقيت الأمور بين شد ومد حتى تمكن الخـــارجي عبدالرحمن بن ملجم المضري من اغتيال الخليفة علي في سنة 661.وذلـــك ثأرا لمقتل أسرة زوجته في معركة نهروان .

وبموت الخليفة علي أسدل الستار على آخر الخلفاء الراشدين، وعلى العهد الذي كان فيه كل المجتمع الإسلامي يعترف فيه بقائد واحد. مـــن ثـم أعلن معاوية نفسه خليفة على دمشق. ورفض شيعة الإمام علي رضـــي الله عنه الاعتراف بحكم معاوية وبالحكم الأموي وانســـحبوا. وأعلـن غالبيـة المنشقين عن معاوية مبايعتهم للحسن، ابن الإمام علي رضي الله عنه كخليفة لكن الحسن، تخلى كليا عن مطالبه في الخلافة لمصلحة معاويـــة وذهـب للعيش في المدينة، مدعوما بالثروة التي من الواضح أن معاوية كـان يمـده بها.

دعاوى أنصار الإمام علي رضي الله عنه والموالين له لم تنته عند هذا الحد . ففي سنة 680 تبوأ يزيد بن معاوية الخلافة التي بويع بها في الوقت الذي كان فيه أبوه على قيد الحياة. ورفض الحسين الابن الأصغر للإمام علي رضي الله عنه مبايعته بهذه الخلافة وتمرد في الكوفة. ولأنه لم يستطع الحصول على دعم شامل، قتل في سنة 680 مع مجموعة صغيرة من جنوده في كربلاء في العراق . وأصبح الحسين بالنسبة للشيعة بطلا شهيدا – للذكرى المأساوية وللمجد الضائع من شيعة الإمام علي رضي الله عنه وقربانا للدعوى الخاصة بوساطة آل بيت النبي محمد ﷺ بأحقيتهم المفترضة في الخلافة. المنتصر السياسي في هذه المرحلة الثانية من الفتنة كان المروانيين من بني أمية، لكن موت الحسين أثار اهتماما متزايدا بين مؤيديه، معززا بالإحساس بالذنب والندم والرغبة في الانتقام.

وعلى الرغم من أنهم لم يحصلوا على التفوق السياسي في مجتمع العالم الإسلامي، أصبح أنصار قضية الإمام علي رضي الله عنه أكثر تحمسا في معتقداتهم . وكما كانوا يعتقدون منذ العهد الأول للخلافة، فإن الإمام علي رضي الله عنه وأسرته بمثابة موانع مضيئة للسخط . ومع استمرار الفتوحات تزايدت أعداد المسلمين من الخلفيات الثقافية غير العربية. وكان من المحتم أن قيمهم الدينية، وهي قيم غريبة بالنسبة للمعتقدات المتقشفة أو البسيطة جدا التي ولدت في الصحراء العربية، تحتاج إلى متنفس، وبكلمات أحد المتخصصين في تاريخ الشيعة، فإن قضية الإمام علي رضي الله عنه سمحت للمهزومين من البلاد المفتوحة "أن يدخلوا على الإسلام بعض أفكارهم المترسبة في أذهانهم والتي في جوهرها غير إسلامية بل أن معظمها مضاد للإسلام" وهو يعني بهذا أنها تتعارض مع التوحيد السليم الصارم للعهد الأول للإسلام.

وقد أسس الشيعة اعتراضاتهم على الأمويين والخلفاء غير الشيعيين المتأخرين على فكرة أن آل بيت النبي محمد ﷺ، ممثلين في شخص الإمام

علي رضي الله عنه، هم الخلفاء الملائمون وذلك لمكانته، كقائد سياسي . الكثيرون يعتقدون أن الإمام علي رضي الله عنه، كصحابي مقرب من السابقين، لديه بصيرة خاصة بتعاليم وسنن النبي ﷺ بالإضافة لذلك، يشعر الكثيرون أنه يستحق الخلافة بسبب مناقبه الشخصية، خاصة وأن الرسول ﷺ عبر عن رغبته في أن يخلفه الإمام علي رضي الله عنه. هذه الأفكار تحولت عند الكثيرين من الشيعة إلى تبجيل طقسي للقدسية الروحية للإمام علي رضي الله عنه. بعض الشيعة يعتقدون أيضا أن النبي محمد ﷺ ترك وصية مكتوبة سمى فيها الإمام علي رضي الله عنه كخليفة له، لكن هذه الوصية دمرها أعداء الإمام علي رضي الله عنه، الذين اغتصبوا القيادة بعد ذلك.

ولأن الاختيار الصحيح للإمامة قضية حرجة يختلف حولها الشيعة مع التيار الرئيس للسنيين الإسلاميين، لذا فإن اختيار الخلفاء المتأخرين أصبح أيضا موضوعا للنزاع. الاختلاف الذي كان يدور حول من من بين الكثيرين المطالبين بالخلافة لديه الحجة الحقيقية على النفوذ الروحي لعلى قد أدى إلى مزيد من الانشقاق.

وظل التنافس السياسي القديم نشطا كما كان. وفي نهاية الأمر تمكن الشيعة من فرض سيادتهم على العراق وإيران، كما امتدت هذه السيادة أيضا إلى اليمن والتي تحولت بعد ذلك إلى دولة سنية . ويتواجد الشيعة أيضا بأعداد هائلة في سوريا كما يتواجدون بأعداد قليلة في معظم البلدان الإسلامية الحالية. وهم يشكلون أكثر من نصف السكان المسلمين للبحرين.

الدولة الإسلامية الأولى كانت توسعية بدرجة كبيرة لأنها مغذاة بكل من حماسة الدين الجديد وبالعوامل الاقتصادية والسياسية. وانطلقت جيوش الفتح والقبائل المهاجرة خارج الجزيرة العربية. ووصلت الجيوش الإسلامية

بنهاية القرن الأول من الإسلام، إلى أقصى شمال أفريقيا وباتجـــاه الشـــرق والشمال إلى آسيا.

وعلى الرغم من أن النبي محمد ﷺ منع المجتمع الإســـلامي مـــن الارتداد للكفر، إلا أنه اعترف أيضا بالوضعية الخاصة للكتابيين – اليـــهود والنصارى – مع اعتبار كتبهم المنزلة مساهمة في الإسلام. وتمكن اليـــهود والنصارى في الأقاليم الإسلامية من أن يعيشوا طبقا للقوانين الدينية الخاصة بهم وفي المجتمعات الخاصة بهم. وهذه الوضعية تستلزم التســـليم بـــالقرار الإسلامي، وهو دفع ضريبة خاصة "جزية" ومنع الدعاية أو الوعظ لدياناتـهم وعقائدهم بين المسلمين.

وشهدت القرون الأولى للإسلام نمو المجتمع من طائفـــة صغـيرة بدائية إلى إمبراطورية ذات نفوذ حكمت مقاطعات واسعة. كما شهدت هـــذه الفترة أيضا تطور الشريعة – النظام الشامل للقانون الإسلامي لتنظيم الحيـــاة في المجتمع– مستمدة من القرآن والحديث بنظم متعددة للاجتـــهاد ، يمكـــن تحديدها عموما بالمذاهب الفقهية الأربعة – الحنفية، الشـــافعيةـ المالكيـــة، والحنبلية – ، وكل مسلم راشد يقر نظريا بمرجعية أي منهما.

الخليج في العصور الوسطى

بمجيء الإسلام وانتشاره أصبحت الجزيرة العربية موحدة، لكن كان من السخرية أن تحتاج إلى إفراغها من سكانها كليا لتتم هذه الوحدة. وكمـــا في هجرات الماضي العظيمة، فإن مواطني الجزيرة العربية في الفترة التـــي تلت مباشرة وفاة النبي ﷺ هجروها مرة أخرى إلى المناطق المجاورة، فقـد كان المزارعون قليلي التمسك بالأراضي ومن الســـهل قيادتـــهم بالمقارنـــة بالقبائل الأخرى والتي يصعب عليها الاندماج في الجماعات الأخرى . وقـــد شجعت التركيبة الاجتماعية والخصوبة الزراعية للأراضي المفتوحة خـــارج شبه الجزيرة سكانها على الاستيطان الدائم فيها، وكان ذلك ضروريا في كـل الحالات لتأمين الحكم والنفوذ الإسلامي . وفي الفترة بيـــن بدايـــة الدولـــة

الإسلامية في عهد النبي ﷺ واكتشاف النفط أصبحت شبه الجزيرة العربية مكانا خلفيا منعزلا اقتصاديا باستثناء التجارة على الخليج والتي زادت بالنسبة للعرب نتيجة لتوسع الفتوحات الإسلامية. ومع ذلك ، ولكون شبه الجزيرة العربية تعد الموطن الأساس للعرب ولوجود مدينتي مكة والمدينة – الأماكن المقدسة – فيها فقد توجب عدم تجاهلها أو نسيانها أو إهمالها ، خاصة فيما يتعلق بوجوب حماية الحجاج الذين يؤدون الحج . كما أن حماية المدن المقدسة تمنح الحاكم هيبة مباشرة. ومع أن الحكام المسلمين في دمشق ينتقمون من القادة الدينيين الذين يثيرون المتاعب في شبه الجزيرة العربية، إلا أن شبه الجزيرة أصبحت رأس الرمح الدي خرجت منه المنافسات السياسية. وفي أثناء النزاعات المتعددة على السيادة الدينية والسياسية في دمشق وأخيرا في بغداد أصبحت مكة والمدينة مركزا للمعارضة، وقد تعرضتا كلتا المدينتين لمحاولة التدمير الكلي أو الجزئي نتيجة للاضطرابات التي تلت ذلك. وبالنسبة لمعظم الأرجاء الأخرى لشبه الجزيرة فقد استمر النظام الاجتماعي كما كان قبل توحيد النبي محمد ﷺ لها.

وخلال القرون الواقعة بين الفتوحات الإسلامية لمنطقة الخليج وقيام أشكال الحكم الحديثة في القرن الثامن عشر، كان النشاط السياسي مركزا على الساحل. وكانت الموارد الطبيعية تتكون بصفة أساسية من أشجار النخيل، اللؤلؤ، والجمال. ولم تكن هذه الموارد كافية لتوفير حتى الضروريات الدنيا للسكان الأمر الذي دفع السكان باكرا إلى ممارسة المهن والنشاطات البحرية مقلدين جيرانهم العمانيين في الجنوب ، ومستفيدين من موقع الخليج في قلب شبكة طرق تجارة القرون الوسطى مما أدى إلى نمو الدويلات البحرية التي تنافست على التجارة عبر الخليج.

وقد بدأ العصر الذهبي لحرفة شحن السفن في الخليج في القرن الثامن مع قيام الخلافة العباسية . كما أن الازدهار الاقتصادي العام في الشرق الأوسط وأوروبا خلال القرن الثامن وتوحيد الصين في ظل حكم

سلالة تانج خلال القرن السابق لذلك يعدان مسؤولان بصورة رئيسية عن زيادة التبادل التجاري في منطقة الخليج وتصاعده، خاصة وأن الخليج قد أعطي الأفضلية على منطقة البحر الأحمر بسبب موقع بغداد إلى الشمال منه . يضاف إلى ذلك مغامرة بحارة المنطقة الشجعان وتجارها من عرب الخليج الذين ذهبوا بعيدا حتى الصين، بمراكب بدائية واسعة ومبنية من المواد المحلية، حيث يتتبع البحارة والتجار الرياح الموسمية بانتظام ويبحرون سنويا بين المراكز الرئيسة لحضارات عالم القرون الوسطى.

ولقد كانت مدينة سيراف على الجانب الإيراني من الخليج أكبر مدينة تجارية بين أعوام 900 و1100، واستمرت في المحافظة على مركزها حتى تصاعدت توسعات السلاجقة الأتراك بداخل العراق وإيران بين أعوام 1055 و1155 مما أسهم في انهيارها خاصة عندما هاجمها السلاجقة من الأرض والبحر. علاوة على ذلك، وبحلول القرن الحادي عشر تمكنت الخلافة الفاطمية في مصر من إزالة معظم تجارة الخليج وإعاد ة تحويلها عبر البحر الأحمر. وبين أعوام 1100 و1300 حلت جزيرة قيس التي تبعد 16 كيلومترا عن الساحل الإيراني، محل مدينة سيراف كسوق رئيسي للتجميع والتوزيع على الخليج . وفي القرن الثالث عشر اختطفت هرمز الأضواء لتصبح المركز الرئيس، وظلت كذلك حتى عام 1507، عندما دمرها البرتغاليون. وسمعة هرمز كمكان للثراء كانت أسطورية حيث أنه بعد قرن من تدميرها ذكرها ميلتون في ملحمته الفردوس المفقود، واصفا إياها بالثراء والأبهة.

وأثناء عهد ازدهار هرمز، ازدهرت ظفار ومسقط في عمان ازدهارا كبيرا ساعد عليه موقعهما الإستراتيجي على خليج عمان بالقرب من مدخل الخليج العربي . وخلال العهد الأول للإسلام، ومع أن المدن التجارية الرئيسة كانت تقع على الساحل الإيراني، إلا أن العرب كانوا دائما حكاما لهذه المدن . وعندما تكون هناك حكومة إيرانية قوية وجيدة التنظيم، فإن

العرب يدفعون الجزية، وإذا كان العكس، فإنهم يحكمون باستقلالية كاملة. ومنذ تلك الحقبة تواجد الإيرانيون في عمان وتواجد العرب في مناطق إيران المجاورة مما تولد منه مزيجا عرقيا.

العوامل الدينية:

<u>الإسلام : الظهور والتطور</u>

يعد دخول سكان بلدان الخليج العربية في الإسلام الحدث الأكثر أهمية، اجتماعيا وسياسيا وثقافيا في تاريخ المنطقة. فسكان بلدان الخليج، تحولوا إلى الإسلام في القرن السابع. وبوساطة هذا التحول واكتشاف النفط وإنتاجه في القرون التالية انتقلت مجتمعات الخليج ذات الإنتاجية الهامشية التي كانت تعيش في القرون الوسطى، نقلة غير مسبوقة في التاريخ، وظل الإسلام حجر الزاوية لهذه المجتمعات، كما بقيت الاهتمامات الاقتصادية الحديثة تتحرك إلى حد كبير داخل الإطار الشرعي والثقافي للتراث الإسلامي.

ومن وجهة النظر الدينية يعد ساحل الخليج العربي أحد المناطق الأكثر تنوعا في العالم الإسلامي. فكل المذاهب العقائدية والفكرية الإسلامية تقريبا تمارس على امتداد الخليج طولا وعرضا حتى وقتنا هذا . وتوجد كل الفرق الدينية، بدءا من نمط الزهاد المتعبدين من "أنصار السنة" إلى أنماط التصوف الباطني الفارسي "الشيعي". يضاف إلى ذلك، الديانات غير الإسلامية مثل الهندوسية والمسيحية التي تعتنقها أعداد كبيرة من الوافدين في هذه المجتمعات المتنافرة.

وإذا ما قررنا أن منطقة الخليج تزخر بطوائف دينية، فإن هذا لا يعني أننا قررنا على أي حال، أن كل مجتمع بمفرده يتضمن كل الطوائف. فالقوى السياسية والتاريخية، التي نشأ بعضها أثناء القرون الأولى للإسلام، قد وزعت مختلف الطوائف وسط الدول الحالية بطريقة أصبحت معها معظم الكيانات السياسية تبرز كمنظومة مميزة للمجموعات الدينية. ومن

المنظور العام، على أي حال، فمن السلامة القول إن الإسلام لم يزل يهيمن على النفوذ الروحي والثقافي وفي كثير من الحالات على النفوذ السياسي بين مجتمعات الخليج حتى الوقت الحاضر . كما أن الصحوة الإسلامية وانتشار نفوذها وتأثيرها في المجتمعات الخليجية آخذ في التزايد وقد بدأت الصحوة الإسلامية الناهضة كاستجابة لعوامل سياسية، واقتصادية ونفسية أثرت على المجتمعات الخليجية في الثمانينيات. وقد ضغط علماء الدين والجماعات المتدينة على الحكومات لإحداث تغييرات لتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية في مجتمعاتهم . وفي نفس الوقت فإن الاختلافات والصراعات الدينية التي ظهرت في المجتمع الإسلامي خلال العصور السابقة والتي أدت إلى تفككه وتخلفه يبدو أنها حاليا بدأت في الظهور على مسرح الأحداث مرة أخرى متخذة منحى متطرفا قويا أكثر مما فعلت عبر القرون التي مضت.

الحركة الأباضية

الأباضية الحالية، وهي المجموعة الدينية السائدة في عمان، واصلت تقليد الجناح المعتدل لحركة الخوارج. وبوجودهم في شمال وشرق أفريقيا وإيران كما في عمان، يكونون بذلك فئة الخوارج الوحيدين المتبقين في العالم.

بعد فترة وجيزة من انسحابهم إلى حروراء، انتخب الأباضيون عبدالله بن وهب الراسبي كقائد لهم. والتحق بطائفة الأباضية بعض من كانوا مع الأمام علي، حيث غادر الكوفة بعض من أفراد جيش الإمام علي رضي الله عنه ثناء هدنة التحكيم، والتحقوا بمعسكر الخوارج، على قناة نهروان ، والتحق بهم البعض الآخر بعد أن أصبحت نتائج التحكيم معروفة. وعلى الرغم من قيام الإمام علي رضي الله عنه بغارته المدمرة على نهروان في سنة 658، فقد استمرت معارضة الخوارج في انتفاضات متفرقة.

وفي مواجهة الاضطرابات المستمرة والتطرف بين أتباعهم، تبنى بعض الخوارج بقيادة أبي بلال مرداس التميمي في عام 670م خطا معتدلا

معارضين الاستمرار الطائش للحرب المقدسة . وبعد اغتيال أبي بلال في سنة 681 انتقلت قيادة المعتدلين إلى عبدالله بن عباد المروي التميمي. ولا يعرف الكثير عن حياة هذا الرجل ما عدا أنه جاء هو وأبوه من نجد في وسط الجزيرة العربية للمساعدة في الدفاع عن مكة ضد قائد الخليفة يزيد. وفي أواخر تلك السنة سافر ابن عباد إلى البصرة في العراق، والتي استقر فيها عدد كبير من الخوارج. وفي هذه الأثناء ترك أتباع قائد الخوارج في البصرة نافع بن الأزرق ، الذين يعرفون بالأزارقة، البصرة للمساعدة في الدفاع عن مكة، تاركين ابن عباد، وأنصاره وبعض المعتدلين ليبقوا في البصرة. وظهر الانشقاق في صفوف المعتدلين عندما أكد عبدالله بن الصفار قائد جماعة تعرف بالصفرية أن المسلمين غير الخوارج يجب أن يعدوا مشركين وقد رفض ابن عباد هذه الفكرة، وغادر الصفاريون البصرة.

وفقد الخوارج السيطرة السياسية على البصرة، وتحولت قيادة الأباضية أثناء فترة قيادة ابن عباد إلى قيادة متكتمة حيث وصفها المؤرخون بحكومة الظل. وبنهاية القرن الأول للإسلام، دفع التطرف المتنامي للأباضية حاكم البصرة ليعاقب رئيس طائفة الأباضية -الذي تولى القيادة بعد موت ابن عباد - العالم العماني دجير بن زيد الأزدي وذلك بنفيه إلى عمان على الخليج. ومع أنه في الأيام الأولى لحركة الخوارج ، عاش أتباع ابي بلال في عمان إلا أن وصول دجير بن زيد وبعض العلماء البارزين أدى إلى زيادة شدة تأثير الأباضية في عمان وأصبحت مدينة نزوة مركزهم الديني.

لا يعرف الكثير عن عقائد الأباضية الأوائل ، إلا أن الأباضية المعاصرين مثل الخوارج الآخرين، يشعرون بأنهم ملزمون بواسطة التعاليم القرآنية بانتخاب قادتهم. وهم بخلاف المسلمين الآخرين، لا يقصرون اختيار القادة على أعضاء قريش أو سلالة الإمام علي رضي الله عنه لكنهم يعتقدون أن أي مسلم كفء يمكن أن يترقى للقيادة بغض النظر عن نسبه. كما أنهم

يعتقدون أيضا بأنهم ملزمون بالإطاحة بالإمام الجائر. ونتيجة لذلك، يسلمون بشرعية خلافة أبي بكر وعمر، والسبع سنوات الأولى من حكم عثمان وحكم الإمام علي رضي الله عنه فقط حتى التحكيم. وهم لا يسلمون بأي من خلفاء بني أمية.

ويعتقد الأباضيون بأن اختيار الإمام الذي يكون بمثابة القائد الديني والعسكري، وبمثابة القاضي، هي مسؤولية علماء الأمة، لأنهم يمثلون القوة التي تعزل الحاكم الجائر. وطالما أن الإمام يتبع القرآن والسنة، فإن نفوذه يكون مطلقا. وعزل الإمام المتهم بالسلوك المنحرف يفترض مواجهة المنحرف بالعلماء، الذين يقررون ما إذا كانت أركان الاتهام موجودة. وإذا وجد الإمام مخطئا، يعطى فرصة للاستتابة والمراجعة. وإذا لم يوفق في ذلك يتبع ذلك عزله من منصبه.

وفي علاقاتهم بالمسلمين الآخرين، يتبنى الأباضيون إحدى طريقتين: الموالاة (الصداقة والتعاون) مع أولئك الذين يعدونهم مؤمنين حقيقيين والثانية البراءة (العداء) نحو جميع الآخرين. ويختلف الأباضيون عن الخوارج الآخرين، حيث يعتبر الأباضيون أن المسلمين غير الخوارج كفارا وليسوا مشركين. ونتيجة لذلك فهم لا يبيحون على الأرضية الدينية إلا قتل المشركين فقط، أما بالنسبة للمسلمين الآخرين غير الاباضيين فإن التعاليم الأباضية تبيح الزواج منهم والتعايش معهم .

المجتمع الأباضي يمكن أن يقوم في واحدة من حالات عدة تحدد بوساطة العلماء. فحالة الكتمان تظهر أثناء فترات الاضطهاد، حيث يكون الفرد الأباضي حرا في ممارسة التقية (التستر أو الاختفاء الديني) لإخفاء دينه الحقيقي ليبعد الخطر عن حياته. وفي حالة ظهور الخطر الذي يهدد حياتهم يتم تعيين إمام خاص يتولى شؤون قيادة الدفاع عنهم . وعندما يعتقد الأباضيون أنهم أصبحوا نصف قوة أعدائهم في الرجال، السلاح، المؤن، وما في حكمها ، فإنهم قد ينتقلون إلى حالة الظهور، وينتخبون الإمام علنا.

ويتميز الأباضيون أيضا بالتمسك بالمبادئ الأخلاقية المتطهرة الصارمة التي تأبى العبث وكل أنواع البدع في العبادة. ورغم زهدهم، إلا أنهم لا يقبلون التصوف أبدا. وارتكاب الكبائر يخرج مرتكبها من ملة المسلمين الأتقياء إلى ملة الكفرة العصاة .

الحركة الوهابية

أصبحت الجزيرة العربية موضعا راكدا نتيجة لعزلتها بعد انتقال العاصمة الإسلامية من المدينة إلى دمشق. كما أن الأحداث الساحلية من النادر أن تخترق وسط الجزيرة حيث تقع منطقة نجد (التي تقع فيها الرياض عاصمة المملكة العربية السعودية) . ومع أن سكان نجد هم من المسلمين ، إلا أن ممارسات ما قبل الإسلام عاودت الظهور مرة أخرى. فالسكان في شبه الجزيرة العربية، وخصوصا في المناطق الداخلية من شبه الجزيرة ، استأنفوا تقديس الأشجار والحجارة، رغم احتفاظهم بهويتهم كمجتمع إسلامي. كما أن الكثير من الأولياء، خصوصا أولئك الذين كانوا يزعمون انتسابهم إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم بطريقة أو أخرى حققوا سمعة واشتهرت قدراتهم الاستثنائية الروحية والسحرية المزعومة. وبدأت معتقدات ما قبل الإسلام المتمثلة في الاعتقاد بوراثة بعض القدرات الروحية الخاصة عند سلالات بعض الأسر تمتزج بهدوء داخل الوجدان البسيط للسكان المسلمين. وأصبحت قصص الأولياء متداولة، وأخذ الناس يزورون هؤلاء الأفراد أو قبورهم بحثا عن الشفاء أو العلاج، وتحقيق الأمنيات، أو المصالح الأخرى.

هذه الممارسات قوبلت باشمئزاز وعدم الرضا من عالم ديني هو محمد بن عبدالوهاب الذي ولد في العيينة في نجد سنة 1703. ونشأ في أسرة علم وتقوى، تولى أبناؤها القضاء وفق المذهب الحنبلي لأجيال متعاقبة. وقد أظهر محمد بن عبدالوهاب عندما كان شابا صغيرا نبوغا

ورشدا غير عادي، واتبع عندما كبر تقليد أسرته في الدراسات الدينية وسافر إلى المدينة، والبصرة ودمشق وبعض المناطق الأخرى.

وبعد أن درس بتوسع ، وتعمق في دراسة الصوفية، رجع إلى موطنه العيينة حيث تقيم أسرته المعروفة . وبدأ هناك في الدعوة المبنية على تعاليم العالم الديني الحنبلي المثير للجدل والمحافظ الشديد تقى الدين أحمد بن تيمية، الذي ذهبت أفكاره إلى أبعد من المعيار الحنبلي في التشدد وحرفية التفسير. لم يلق ابن عبدالوهاب في العيينة رد فعل إيجابي بسبب التشدد غير العادي لتعاليمه. وانتهى به الأمر في الأخير إلى مغادرة العيينة بأسرته وممتلكاته، واستقبل في قرية الدرعية، التي كان يحكمها محمد بن سعود.

وأسرع محمد بن عبدالوهاب بالشروع في تنفيذ تعاليم ابن تيمية التي تقضي بتوحد العلماء والأمراء، لإيجاد مجتمع إسلامي حقيقي. فقد تمكن محمد بن عبدالوهاب من الوصول إلى اتفاق مع محمد بن سعود حاكم الدرعية على إنشاء حلف يقضي بأن يتولى آل سعود مسؤولية الجهاد وقيادته من أجل نشر المذهب الوهابي وتولى المقاليد السياسية في جميع الأقاليم التي يتم فتحها، وأن يتولى آل الشيخ أمور الشؤون الدينية. وعليه، برزت إلى الوجود المشاركة الفعلية التي أوقدت الحماسة الدينية ومناصرة الدعوة الوهابية لدى الأسرة السعودية الحاكمة وتوسيع منطقة حكمها مما أدى إلى وجود مملكة في نجد، وفي الأخير إلى تطور الدولة السعودية الحالية.

التزم محمد بن عبدالوهاب المعاني الحرفية للقرآن، ومثله مثل ابن تيميه من قبله، كان يؤمن أن وحدانية الله المطلقة غير القابلة للتعدد أو المقارنة وهي جوهر الإسلام الحقيقي، وأكبر الكبائر هو الشرك بالله وأن الممارسات والاعتقادات التي تؤدي إلى إشراك أي شيء مع الله أو عبادة أي شيء غيره تتنافى مع وحدانية الله سبحانه وتعالى . والسبب الأساس للشرك كما يعتقد ابن عبدالوهاب هو تبني البدع – وهي ممارسات كانت موجودة

في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ومن جاء بعده من الصحابة والتابعين حتى قبيل القرن الثالث للإسلام. بعض هذه الممارسات المصنفة كبدع كانت في الحقيقة سابقة للإسلام، لكن ابن عبدالوهاب مؤخرا استنكرها كآثام . وتعد زيارة الأولياء والأضرحة وتقديس الأشجار والحجارة الأكثر شيوعا من بين هذه البدع. وتشمل البدع الممنوعة أيضا التقديس غير الملائم للنبي محمد صلى الله عليه وسلم ، أو الاحتفال بمولده . وقد منع على وجه الخصوص بدعة التوسل والتضرع بذكر أسماء الرسول أو الأولياء في الصلاة على أمل أن يلتمسوا للمتوسل الرحمة من الله . ويعتقد الوهابيون أنه مع أن النبي صلى الله عليه وسلم يمكن أن يكون شفيعا عند الله، إلا أنه يفعل ذلك ليس لإجابة طلبات خاصة لكنه يفعل ذلك كونه المؤمن القدوة.

ويرفض الوهابيون كل العلاقات الخاصة بالله رفضا مطلقا، وهي العلاقات التي يؤمن بها المتصوفة والأولياء وأئمة الشيعة ذات الممارسات الغيبية التي يعتقد أنها تعزز هذه العلاقات الخاصة مع الله. ويؤمن الوهابيون بأن الوصول إلى الله يتم فقط عن طريق الصلاة والطاعة، وأن هذا الوصول متاح لكل المؤمنين الصادقين . وتبنى محمد بن عبدالوهاب المعتقدات والأفكار الحنبلية لكونها مستمدة من القرآن ، وعارض العلوم العقلية من منطلق عدم اشتقاقها من القرآن أو من الحديث. وذهب ابن عبدالوهاب إلى ما هو أبعد من التعاليم الحنبلية، بمنعه للتدخين وحلاقة اللحية (الذقن) ولغة السباب وقصر استخدام اللغة العنيفة والمجاهرة بالصوت على حث الناس على أداء صلاة الجماعة، كما أوجب الزكاة على الأرباح السرية، وطالب بإثبات حسن السيرة إضافة إلى الاقتناع بالمعتقدات السلفية للانضمام إلى المجتمع الإسلامي، كما منع المآذن والزخرفة على الأضرحة، وبعض وسائل التسبيح مثل المسبحة. كما أكد على الواجب الملزم لقانون إنفاق المال الذي سنه الرسول صلى الله عليه وسلم ومنع المعتقدات والأفعال التي يعتبرها زنديقية أوكفرية مثل الموسيقى والرقص. الوحدانية عند محمد بن

عبدالوهاب لا تعني فقط وحدانية الله لكن تعني أيضا إفراد العبادة لله وحده. الواجب الأوحد لحياة الإنسان هو عبادة الله وطاعته مع التسليم بقبول أن ما يحدث هو نتيجة لمشيئة الله، بالإضافة إلى أن العبادة يجب أن تؤدى بالضبط طبقا لأوامر الله كما جاءت في الكتاب والسنة . فالحماس والغيرة الدينية للمؤمن التي تمتزج بحسن المعاملة والتأدب والطاعة تشكل التسليم الكلي لله. وباختصار، فإن الوهابية تعني "الإخلاص الأمثل المكرس لإطاعة الأوامر الربانية".

وبالنسبة لمحمد بن عبدالوهاب فإن أي وسيلة أخرى غير ذلك للوصول لله هي شرك. لذلك فإن أولئك المسلمين من الطوائف أو المذاهب الأخرى، الذين يدعون إتباع دين الله الحق في الوقت الذي يمارسون فيه الشرك هم غير مسلمين، ويعتقد محمد بن عبدالوهاب أنهم منافقون ، وواجب المسلم الحق استئصال هذه المفاسد من الدين القيم. وعندما أصبحوا منتقدين، برهن الوهابيون بالدليل على تنكرهم لعبادة الصور والتماثيل.

في سنة 1801 هز الوهابيون غالبية العالم الإسلامي ، بتشويههم ضريح الشهيد الحسين بن علي في كربلاء، وهو مزار ذو قدسية خاصة عند الشيعة.

والوهابي لا يؤدي الفرائض كفرد منعزل كما يفعل بقية المسلمين الآخرين، بل ينظر محمد بن عبدالوهاب للمجتمع كأداة مثالية لتنفيذ شريعة الله ، فالشريعة هي توجيه للإيمان، والإسلام هو إنفاذ للشريعة. ويفسر الوهابيون مفهوم الجهاد بأنه يتضمن إلزام المجتمع بتنفيذ الشرع والالتزام المتبادل للمؤمن بطاعة السلطة الدستورية للإمام الوهابي ماعدا حالة أن تؤدي هذه الطاعة إلى الضلال عن الشريعة. والقائد (الإمام)، على هذا النحو، له الحق في أن يتخذ ما يراه لازما للتأكد من تأدية المجتمع للفروض والواجبات الدينية مثل الصوم، حضور الصلاة، ودفع الزكاة ومنع المنكرات والخطايا. كالابتذال، والتبرج.

ويؤمن الوهابيون بالمساواة الاجتماعية بينهم ، والتمييز الاجتماعي المسموح به فقط هو التفرقة بين المسلمين الوهابيين والآخرين . ويجاهد الوهابيون بمثالية للوصول لكمال الاقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته، الذين يصورونهم كأشرف وأكمل خلق الله.

ويعد أتباع محمد بن عبدالوهاب أن تعاليمه شديدة السمو كما يشيرون إلى العهد الذي سبقه بالجاهلية، وهو الاصطلاح الذي يستخدم بصفة عامة داخل إطار المجتمع الإسلامي للإشارة إلى الفترة التي سبقت الإسلام. ولكن هذا لا يعني أن أتباع محمد بن عبدالوهاب يعادلونه بالرسول صلى الله عليه وسلم. بل هم ينظرون إليه كمصلح ديني سعى إلى إرجاع المسلمين إلى الالتزام بالدين الحق وممارسته كما التزم به ومارسه السلف الصالح وذلك بدلا من سن عبادة جديدة . ولا يوجد عالم مسلم وجه لمحمد بن عبدالوهاب تهمة الهرطقة أو البدعة. و كما فعل النبي محمد صلى الله عليه وسلم تماما، فقد أوجد محمد بن عبدالوهاب على أي حال التبرير الديني للحركة السياسية التي سعت لإزالة التمايز القبلي وربط كل الجزيرة العربية في وحدة قائمة على الدين.

بعد النجاح الأولي لمحمد بن سعود وخلفائه الذين جاءوا من بعده مباشرة، تدهورت الحركة الوهابية سياسيا حتى بداية القرن العشرين حيث شرع القائد الموهوب الأمير عبدالعزيز الذي عرف لاحقا بابن سعود في إلباس التوقد الديني بالطموح السياسي ليكون الدولة العربية السعودية الحديثة.

عوامل المصالح الدولية:

دخول الأوروبيون إلى الخليج: البرتغاليون:

على الرغم من أن عرب الخليج، خصوصا العمانيون كانوا محتكرين بالكامل لتجارة الشرق – والغرب، إلا أن القوى الأوروبية دخلت المنافسة منذ زمن مبكر. فأهل البندقية وقعوا حلفا تجاريا مع الخليفة

العباسي في بغداد وكانت لديهم مراكز تجارية في دمشق وحلب. وعندما أصبحت مصر الفاطمية القوة الإسلامية المسيطرة في القرن الثاني عشر، أسس أهل البندقية مكانتهم في الإسكندرية، وبتبادل التوابل والأطعمة الشرقية الأخرى، أمدوا الفاطميين بالذخائر والأخشاب والرقيق. واستفاد أهل جنوى أيضا بدرجة قليلة من طرق التجارة العربية التي قامت مع الشرق، لكنهم بحلول القرن الرابع عشر أجبروا على تقليل تعهداتهم التجارية ، ومن ثم أصبح أهل البندقية رابطة التعاون الوحيدة بين العالم الإسلامي وأوروبا حتى نهاية القرن الخامس عشر.

ولقد حد استيلاء العثمانيين على القسطنطينية في سنة 1453 من تجارة أهل البندقية على البحر الأحمر، لكن الضربة القاضية لأنشطة تجارتهم الشرقية كانت من البرتغاليين، الذين دخلوا المحيط الهندي في السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر. ونزل فاسكو دي جاما أو حل في العديد من المستوطنات العربية في الساحل الشرقي لأفريقيا أثناء رحلته سنة 1497. وفي ماليندي، طلب فاسكو دي جاما من الملاح العربي الشهير، أحمد بن ماجد الإبحار به إلى كلاكتا، ولقدرة البرتغاليين على مواجهة تقلبات الرياح الموسمية، والمخاطر الساحلية، استطاعوا تحويل التجارة الشرقية من المرور حول رأس الرجاء الصالح إلى البحر الأبيض المتوسط.

وكان الهدف الرئيس لمغامرات البرتغاليين هو احتكار تجارة التوابل وسلع الترفيه الأخرى التي اعتاد عليها البرتغاليون خلال الحكم الإسلامي. كما كانت العقلية الصليبية بارزة أيضا في الاكتشافات البرتغالية. وهذا على الأقل هو التفسير الوحيد للوحشية الجماعية التي ارتكبها فاسكو دي جاما ضد الحجاج المسلمين العزل الذين كانوا في طريقهم إلى مكة.

لقد دعم الغرب المسيحي البرتغاليين بكل المقاييس من أجل قيامهم بمغامراتهم ، مما تسبب في الإضرار بالمصالح التجارية لأهل البندقية، الذين تحالفوا من غير جدوى مع المصريين ضد البرتغاليين. ولقد أرسل ملك

البرتغال الملقب بسيد الفتح، والملاحة، وتجارة الهند، وأثيوبيا، وشبه الجزيرة العربية قائده فرانسيسكو دي الميديا ليكون حاكما للمستوطنات البرتغالية في الشرق. وفي سنة 1506 أبحر الفونسو دي البوكرك إلى الهند، لتولي مركز مستشارية وحكم الهند بدلا من دي الميديا.

قبل وصول البوكرك للهند، قام بتأمين الوضع البرتغالي في الخليج وذلك بعد أن صدرت إليه الأوامر بإيقاف تجارة المصريين وأهل البندقية في البحر الأحمر. ولكي يقوم بذلك فقد أدرك أن قفل البحر الأحمر بإحكام يستلزم أولا تأمين الوضع في الخليج ، وذلك بانتزاع جزيرة سوقطرة على بحر العرب لكونها النقطة الملائمة عند منتصف الطريق. وبعد أن تمكن من تدمير كل السفن العربية المتواجدة في نطاق سيطرته ، قام باحتلال بعض المدن منها القريات ومسقط، وصحار وخور فاكان وأخيرا مدينة هرمز وهي أهم مدن تجارة الخليج ، والتي أقام فيها أول حامية من سلسلة الحاميات البرتغالية التي أقامها على طول الخليج الأدنى . إقامة البوكرك الأولية في هرمز كانت قصيرة جدا نتيجة للقلق الذي سببه له البحارة البرتغاليون المشاكسون ، مما دفعه لمواصلة رحلته إلى الهند الأمر الذي أدى إلى إهمال هرمز مؤقتا . ولكون مدينة هرمز كانت تعد موقعا استراتيجيا شديد الأهمية لا يمكن إغفاله لمدة طويلة، عاد البرتغاليون واحتلوا هرمز مرة أخرى في سنة 1515.

وضع البرتغاليون نموذجا للبريطانيين ليحتذوه، ويتمثل هذا النموذج بإتباع سياسة عدم التدخل في شئون الحكم المحلي. وعندما حاول البرتغاليون إدارة الجمارك مباشرة أدى ذلك إلى قيام عدة انتفاضات محلية، استغلها البرتغاليون لتوقيع معاهدة بين شيخ هرمز والبرتغاليين وكان ذلك في 23 يوليو 1523. وعلى أساس هذه المعاهدة لم يكن شيخ هرمز تحت حماية البرتغاليين فحسب بل إنه كان واقعا تحت سيطرتهم التامة ، وفي نفس الوقت منحت هذه المعاهدة الشيخ حق ترسيخ الشؤون الداخلية لهرمز والولايات

الخليجية الأخرى تحت سيادته . ومع أن العثمانيون قاموا بمحاولات متفرقة كانت في الغالب بمساعدات محلية لإخراج البرتغاليين في سنة 1538 و1550 ، إلا أن السيطرة البرتغالية ظلت على أي حال ثابتة، حتى مطلع القرن السابع عشر، حيث برزت عدة عوامل من أهمها تردي الأوضاع في أوروبا والدخول في حروب جانبيه مع الدول الأوروبية مما جعل من الصعوبة عليهم الاحتفاظ بوضعهم .

التدخل الهولندي البريطاني

في أواخر القرن السادس عشر بدأ الهولنديون والبريطانيون في تحري إمكانية تدخل دولهم في النشاطات التجارية الخليجية. فقد قام جون بيري من مواطني لندن بزيارة هرمز في سنة 1580 ورجع إليها بعد ثلاثة سنوات مع رالف فيتش لدراسة تلك الإمكانية. ونتيجة للقرار الهولندي القاضي برفع سعر الفلفل إلى ثلاثة أضعاف انتشر ذعر شديد في الدوائر التجارية البريطانية من تحكم الهولنديين مما ولد رغبة لدى البريطانيين لمعالجة هذا التحكم . واستنادا إلى ما أورده فيتش في مذكراته التي نشرها عن زيارته للخليج، تشجع تجار لندن بدرجة كافية لإنشاء الشركة الشرقية المتحدة في سنة 1600.

وجاء المشروع البريطاني مصادفة مع تبوؤ الشاه عباس الأول للعرش الإيراني في سنة 1587، الذي قرر أن الوجود البرتغالي في منطقة الخليج يشكل إزعاجا لمملكته . كما أن البرتغاليين وبنظرة دبلوماسية متميزة لأنفسهم رفضوا بشدة دفع الضريبة الصغيرة نسبيا التي تطلبها إيران دائما من أولئك الذين يحكمون في مدن الخليج التجارية . ونتيجة لهذا الرفض، انتزع الشاه عباس البحرين من البرتغاليين في سنة 1602، كما حاول دون جدوى إخراجهم من هرمز في عامي 1608 و1615. وخلال هذه السنوات بدأ الإنجليز يحصلون ببطء على موطئ قدم في المنطقة ويقيمون علاقات صداقة مع البلاط الإيراني . فالتحق السير أنتوني شيرلي وأخوه روبرت

للعمل في الخدمة الخاصة للشاه سنة 1600 وأصبحا من المقربين لديه. وعندما جاء السيد إدوارد كونارك حاملا رسالة إلى الشاه من الملك جميس الأول سنة 1617 طالبا الدعم لشركة الهند الشرقية استقبل استقبالا حارا من قبل الشاه ووعده بالدعم اللازم وهو الدعم الذي تمثل في تخصيص ميناء جشك ليباشروا منه تجارتهم . وفي هذا الميناء اتخذ السفير البريطاني في البلاط الإيراني مقرا دائما له وتمكن البريطانيون من احتكار جميع صادرات الحرير عبر الموانئ الإيرانية، .

وبعد الصعوبات الشديدة التي واجهوها في ترتيب وضعهم - وهي صعوبات نجمت جزئيا من انضمام البرتغاليين إلى الأسبان في سنة 1581 - حاولوا دون جدوى إيقاف سفن شركة الهند الشرقية من الدخول إلى ميناء جشك الإيراني . وفي سنة 1622 نفذ البريطانيون والإيرانيون هجوما مشتركا على حامية هرمز البرتغالية ومعسكر في جزيرة كوشيم نتج عنه انتصارهم على البرتغاليين وابرم المنتصرون اتفاقا بينهم يقضي باقتسام عائدات الجمارك التي يتم الحصول عليها من جزيرة كوشيم وهرمز بين الإيرانيين وشركة الهند الشرقية . واتخذ البريطانيون من بندر عباس، مقرا لقيادتهم وأصبحت بندر عباس منذ ذلك التاريخ مركزا للنشاطات السياسية والتجارية في الخليج واستمرت في احتلال ذلك الموقع خلال المائة وخمسين سنة التالية.

ومع أن استصلاح المناطق التي كانت واقعة تحت السيطرة البرتغالية كان حتميا إلا أنه تم ببطء . فقد استصلح الإيرانيون خور فاكان وبقوا فيها لمدة سنة كاملة ، حيث عاود البرتغاليون احتلالها مرة أخرى لكنهم طردوا منها بواسطة قوات عربية كان يقودها أحد أبناء الأسر الحاكمة في عمان وهو الإمام ناصر بن مرشد وهو أول إمام لليعاربة. كما انتزع الإمام ناصر في سنة 1643 مدينة صحار. وبحلول سنة 1650 أكره

البرتغاليون على ترك مسقط. ولم يبق تحت سيطرتهم إلا مدينة كونج الواقعة في شمالي إيران .

ومع أن الوجود الهولندي في الخليج امتد فقط لمائة وثلاثة وثلاثين سنة إلا أنه كان مكسبا غير عادي بالنسبة للهولنديين . فشركة الهند الشرقية المتحدة الهولندية، تشكلت بعد فترة وجيزة من إنشاء مثيلتها الشركة البريطانية، وهذه الشركة الهولندية كانت أول شركة عامة متحدة في العالم من حيث إصدار أسهم الملكية للاكتتاب العام وهذا دون شك ساهم في نجاحها الأول. فحملة الأسهم في وطنهم "هولندا" واصلوا ضغطهم على الحكومة الهولندية لدعم نشاطات الشركة، في حين أن شركة الهند الشرقية البريطانية كانت في الأول تعتمد كليا على مواردها الخاصة. ولقد أعطى البريطانيون الهولنديين دعما تنظيميا في الخليج وذلك مقابل المساعدة التي قدمها الهولنديون في المعركة العسكرية ضد البرتغاليين في سنة 1625. وعليه فقد استخدم الهولنديون أيضا ميناء بندر عباس مركزا لعملياتهم. ونتيجة لتفوق الهولنديين المبكر في تجارة شرق آسيا فقد كان لديهم شبكة تجارية أوسع من البريطانيين، مما جعل تجارتهم تزدهر أكثر.

وظلت الأمور في هذا الإطار حتى نشبت الحرب البريطانية – الهولندية في أوروبا سنة (1653–1654) حيث امتدت هذه الحرب إلى الخليج، وتعرض البريطانيون فيها لخسائر فادحة، نتج عنها انتقال السيادة التجارية إلى الهولنديين . وبحلول سنة 1680 تمكن الهولنديون من تعزيز وجودهم القوي في كل من البصرة وبندر عباس بحيث أصبح الخليج أشبه ما يكون ببحيرة هولندية. وبقي البريطانيون ينتظرون الفرصة المواتية، وهكذا بقيت الأمور حتى بدأ انهيار هولندا في القرن الثامن عشر مما أضعف باطراد نفوذها في الخليج ، حيث تم جلاء هولندا عن بندر عباس في سنة 1759. وعندما ترك الهولنديون جزيرة خرج في سنة 1755، انتهى الوجود الفعلي

لهولندا في الخليج كله وانفردت بريطانيا بالسيطرة على الخليج دون منافسة تذكر.

القرصنـــــــــة

سادت الاضطرابات في الخليج منذ نهاية القرن السابع عشر حتى سنة 1778. ومع أن القرصنة تقليد قديم الأساس، يرجع إلى عصر الآشوريين، إلا أن العرب، وبخاصة العمانيون، كانوا أول قراصنة يحصلون على شهرة واسعة في العصر الحديث . وعلى الرغم من أن إطلاق كلمة قراصنة على أناس يستخدمون الوسائل المتاحة لهم فقط للدفاع عن أرضهم وحماية أنفسهم يعد أمرا مثيرا للشك والريبة، فإن الأوروبيين الذين كانوا يمارسون جميع أنواع أعمال القرصنة داخل وخارج الخليج وفي كل مكان تقريبا هم من أطلق هذه التسمية على عرب الخليج عامة وعلى العمانيين بصفة خاصة.

ونتيجة لتواجد الأوروبيين في الخليج فقد نشأت احتكاكات عدائية بين البريطانيين والهولنديين وفي بعض الأوقات مع الفرنسيين مما ضاعف من عدم الاستقرار العام في المنطقة . وبحلول سنة 1688، وصلت القرصنة بكل المقاييس إلى ذروتها في الخليج، وكان من المتعذر على البريطانيين أن يحتفظوا بوجودهم التجاري الوحيد في مأمن دون أن تتعرض تجارتهم للمخاطر . ومن هذا المنطلق تخلت الحكومة البريطانية عن جزيرة بومباي إلى شركة الهند الشرقية. وفي مقابل جلاء البرتغاليين عن الهند الشرقية التزم البريطانيون بتقديم الحماية للممتلكات البرتغالية في تلك المواقع. ولكي تحمي الشركة نفسها ومشاريعها من البرتغاليين، سمح لها بتنظيم إدارتها المدنية وأعطيت الصلاحية لتكوين قواتها المسلحة الخاصة بها . ودمجت شركة الهند الشرقية مع شركات "جديدة" في سنة 1708 لتشكل شركة رجال الأعمال المتحدة لتجارة الهند الشرقية البريطانية.

وتمتع ممثلو الشركات المندمجة المقيمون بامتيازات القناصل من حيث المكانة والرتبة الدبلوماسية . وقد طلب من المقيمين استثمار مواردهم المالية في بعض الأوجه التجارية وذلك بقصد زيادة حفزهم وتشجيعهم على الولاء ، وهذا بالتالي نشأ عنه تصادم المصالح الفردية مع مصالح الشركة وأدى إلى تعقيدات وعدم توفيق بين المصالح الشخصية وسياسة الشركة.

ومثل هذه التعقيدات والإجراءات غير الفعالة ، تمخض عنها البدء في إيجاد مزيد من المؤسسات السياسية والعسكرية في المنطقة. وبحلول سنة 1763 كان التجار البريطانيون في حاجة ماسة لمثل هذه المؤسسات ، خاصة منذ نهاية عهد أسرة السافافي في إيران في سنة 1722 حيث بدأت تسود فترات من الاضطرابات والفوضى الداخلية المستمرة، لدرجة أصبحت فيها مدينة بندر عباس غير آمنة كليا. ونتيجة لهذه الظروف وافق الشاه في ذلك الوقت، وهو كريم خان، على طلب الشركة بنقل مركزها من بندر عباس إلى البصرة، وتم إنشاء موقع تجاري جديد في بوشير والمعروفة حاليا بوشهر . كما أعفى الشاه كريم خان الشركة من الضرائب ومنحها حق الامتياز الوحيد لتوريد الصدف إلى إيران وقد أكد للشركة أنه لن يسمح لأي قوى أوروبية أخرى غير بريطانيا بتأسيس ميناء في إيران . وفي ضوء هذه التغيرات تمتع سكان بوشهر بحكم ذاتي اعتبارا من سنة 1788، كما أصبح الوجود البريطاني في الخليج الذي يؤرخ له منذ ذلك الحدث، متمركزا في بوشهر حتى انتقل إلى البحرين في سنة 1964.

العوامل الاجتماعية:

البنية الاجتماعية لمجتمعات شبه الجزيرة العربية

تستمد طبيعة التركيبة الاجتماعية التي تميز مجتمعات الخليج في القرن العشرين جذورها من أسس التركيبة الاجتماعية التي ترسخت جيدا منذ قرون قديمة. والعائلات التي نستطيع تتبع جذورها إلى تلك الفترة هي العائلات التي تعد من العائلات الأصيلة . فقبل مجيء النفط كان نمط

مجتمع الخليج يتكون من سكان الموانئ والظهائر المحيطة بتلك الموانئ ، والتي تتضمن المستوطنات الزراعية المتناثرة والجماعات البدوية الرعوية. وفي كل من المجتمع المستقر والسكان الرحل، تشكل القبلية الإطار اللازم للنظام الاجتماعي. فكل قبيلة رئيسة لها إقليمها الذي تتمتع فيه بحقوق استعمال الأراضي الزراعية أو المراعي والمياه . ومع أن القبائل المستقرة تسيطر على القرى ، فإن لكل فخذ أو عشيرة داخل كل قبيلة من الرحل آبارا وواحات معينة خاصة بها يجتمع فيها أفرادها مع مواشيهم أثناء حرارة الصيف الشديدة. كما أن أجزاء مهمة من معظم هذه الأفخاذ أو العشائر تعيش بصفة دائمة في هذه الواحات، حيث يهتمون بأشجار النخيل والأشجار المثمرة الأخرى التي تنمو هناك. ونظرا لأن مزارعي القرى تحكمهم أيضا الروابط القبلية ، فإنه لم تكن هناك قط حدود فاصلة أو واضحة بين القبائل الرحل والمستقرة وما زال الأمر كذلك في الوقت الحاضر . وبالإضافة إلى البنية الترابطية للقبيلة ، تشكل القبيلة وحدة اجتماعية معقدة . فالتركيبة الاجتماعية للقبلية مبنية على التفريعات المترابطة للسلالة الأبوية للرجال. فالقبيلة هي مجموعة من أسر ذات قرابة تتحدر أصولها من جد أعلى . وداخل إطار الولاء الكلي للقبيلة ، تتشكل جماعات تتحدر من أجداد وسيطين مكونة مستويات محددة ومتعددة للمجموعات الأصغر. وفي حالات النزاع، فإن مجموعات الأقارب من الرجال تتكتل عند مستوى معين من المعارضة. فمثلا، أحفاد الأخوان يشكلون مجموعات يعارض بعضهم بعضا، لكنهم يشكلون وحدة واحدة عند معارضة أحفاد شقيق جدهم المشترك.

وتتكون الجماعات القبلية من مجموعات أكبر وأكبر ترتبط بروابط تزداد ضعفا بالنسبة للولاء كلما تزايدت أعداد وتفريعات القبيلة . والوحدة الأساسية للنظام القبلي هي الأسرة. وعدد الأسر الذي يفترض انحدارها من جد أعلى وتكون فخذا يتراوح عدد أجيالها ما بين خمسة أو ستة أجيال إلى الوراء. وتتشكل العشيرة من أربعة أو ستة من الأفخاذ المتحدة ، التي تزعم

انحدارها من جد أعلى . والعشيرة تكون غالبا هي الوحدة الاجتماعية الأبرز في السياسات القبلية. والقبيلة والتي تتكون من قرابة سبع عشائر، كانت في السابق هي الوحدة العسكرية. كل واحدة من مجموعات النسب المحددة تسير باسم من تنسب إليه ، وتلحق بآل أو بني.

قبل نشوء أنظمة الدولة الريعية في بلدان الخليج العربية وتنميتها الحجرية، كانت مناصب المشيخة والأمارة رغم امتيازاتها النسبية المحددة، ليست إجمالا وراثية. فاختيار الشخص الذي سيتولى موقعا قياديا شاغرا يتم توليته واختياره من بين المرشحين الذين لديهم الوضعية السلالية الضرورية اللازمة شريطة أن يحظى بموافقة رؤساء الأسر المهيمنة أو النافذة . في الماضي كانت عملية الاختيار تنزع وتميل إلى الرجل المعروف بشجاعته، وبسماته القيادية، وأحيانا خططه في المعارك . ومع أن من يفتقد النسب الضروري لا يمكن أن يتوق للقيادة القبلية، فإن النسب وحده لا يكفي كمؤهل لتولي هذه القيادة.

وعلى الرغم من أن الغالبية العظمى من السكان في مجتمع الخليج مستقرون ، إلا أن القبيلة ظلت وما زالت مهمة جدا في الوقت الحاضر . فمعظم الناس، سواء كانوا بدوا رحلا، أم قرويين، أم ساكني مدن، يقرون بالانتساب القبلي أو على الأقل يعترفون بمثل هذا الانتساب كإطار للمجتمع. كما أن المدن التي نمت خارج التكتلات والروابط القبلية اتسمت الحياة الاجتماعية فيها بإعطاء الروابط القبلية وزنا مميزا لدرجة يمكن القول معها أن جغرافية المدينة السكانية تمثل بشكل بارز الأنساق الاجتماعية المتواجدة فيها.

نظام الحكم المحلي

تختلف أنظمة حكم البلدان الخليجية عن المجتمعات الأخرى ذلك أن الحكم السياسي لا يستمد شرعيته من سلطة القلة ذات النفوذ ،أو من طبقة التجار المستقرة بتاريخها الطويل في ظل التمدين والمؤسسات الحضرية.

فموجهات الحكم في بلدان الخليج العربية ترتكز على النموذج السياسي التقليدي لعرب الصحراء ، حيث جرت العادة أن تتولى القبيلة المسيطرة على المنطقة حكم المدن، فشيخ القبيلة هو حاكم المدينة وفي بعض الأحيان هو حاكمها وتاجرها . وتتمحور أهداف الشيخ الرئيسة حول تأمين الأحوال الداخلية ونشر الأمن بحيث لا تتضرر التجارة كما يعمل على تأمين الأرباح الكافية التي تمكنه من الإبقاء على هيبته الخاصة. ويعتمد دخل الحاكم على منح الرخص التجارية واصطياد اللؤلؤ والجمارك والضرائب على بضائع معينة مثل التمور، والتي تعد جميعها ثانوية الأهمية موازنة بالأرباح التي يجنيها نتيجة لصفقاته التجارية الخاصة. ويؤمن الشيخ سلطته بدفعه رواتب لجنوده ، وغالبا ما يكون هؤلاء الجنود من أفراد قبيلته الموالين له. ويدفع الشيخ الحاكم الجزية للبلدان الكبيرة المجاورة وعلى وجه الخصوص لتلك التي من المحتمل أن تسبب له اضطرابات من خلال الدعم المتنوع لأولئك الذين يكونوا في وضعية تمكنهم من تحدى سلطته. وكما هو الحال في الكثير من تاريخ الخليج الحديث، فإن الدخل الكلي يعد مالا خاصا للشيخ يصرفه بصورة خاصة أو في المصالح العامة حسب توجهاته. كما يجب على الشيخ استرضاء القبائل البدوية القريبة من منطقته ليضمن تعاونها، بحيث يشجع انخراطهم في النشاطات الموسمية في منطقة حكمه لكي يلهيهم عن القيام بالهجمات المتقطعة على ساكني المدن. وساكنو المدن غير المنخرطين مباشرة في إحدى أنواع التجارة يقومون بصيد اللؤلؤ خلال الموسم أو بزراعة الأراضي القليلة الصالحة للزراعة في المنطقة الريفية للدويلة.

والمؤسسات المدنية المتواجدة ليست بالضرورة نتيجة لمبادرة الحاكم بل إنها من المؤسسات التي أمرت بها الشريعة. ونتيجة للطبيعة الشمولية للشريعة هناك حقوق معينة مكفولة للمواطنين، كما أن هناك قيودا معينة. كما أن القانون القبلي العام – العرف – كان أيضا عنصرا بارزا في تنظيم الحياة اليومية خاصة وأنه لا يتعارض دائما مع الشريعة.

وحيث يقوم الحكم على النموذج العشائري الصحراوي، فإن ثـراء المنطقة المحكومة يعتمد بدرجة كبيرة على قوة وذكاء حاكمها. فعندما تشـهد تجارة الخليج فترات من الكساد، يكون التنافس بين المناطق المحكومة حاميـا بدرجة كافية لإحداث اضطرابات داخل تلك المناطق وداخل القبـائل التـي دائما ما تلجأ لأعمال القرصنة البحرية وتحدث فوضى داخليـة . وإذا جـاء حاكم ضعيف بعد آخر قوي ، فإنه يعزل في الحال ، مما جعـل موضـوع التغييرات السريعة في الأسرة الحاكمة من الأمور العادية غير المستغربة من حيث تكرار حدوثها . وظلت هذه التغيرات المستمرة للحياة السياسـية فـي دويلات مدن الخليج سمة من سمات المنطقة حتى قيام أشكال الحكم الحاليـة التي بدأ تكوينها في القرن الثامن عشر في ظل حماية القـوى الأوروبيـة، خصوصا البريطانية وذلك لخدمة مصالحها الثابتة.

العوامل السياسية:

الكويت والبحرين

عجل الجفاف الطويل غير العادي الذي بدأ سنة 1722 والمجاعة التي صاحبته في منطقة الأفلاج في نجد بالـهجرات الكثيفـة للقبـائل العربيـة المتحالفة من العدنانيين والعنوز بما فيها قبيلة العتوب إلى شمال الأراضـي الساحلية للخليج . وكانت هذه المنطقة تخضع لسيطرة بنـي خـالد، الذيـن امتدت سلطتهم من البصرة في شمال شرق الجزيرة إلى الأجزاء الشـرقية لنجد وجنوبا من ما وراء الأحساء إلى قطر.

وكانت قبيلة العتوب ولفترة طويلة تتمتع بحماية بني خالد مما أتـاح لهم بانتظام رعي قطعانهم في الأحساء. ولقد استقبل العتوب استقبالا حسـنا، وأخذوا يستقرون في مدينة صغيرة سموها الكويت تصغير لكلمة كوت التـي تطلق على القلعة التي تبنى بالقرب من الماء. ولم تكن الكويت ذات أهميـة تذكر أو فيها ما يمكن أن يشجع على الاسـتقرار. فـهي عديمـة المـ

الزراعية وتفتقر إلى أي مصدر قريب للمياه الصالحة للشرب. وبموازنتها ببقية إقليم بني خالد، فإنها كانت تتميز فقط بالجو المعتدل . إضافة لذلك، فإن الأحساء وهي المحطة النهائية للعديد من قبائل عنزة المهاجرة، أصبحت في وقت وجيز مكتظة بالسكان.

وكان أكثر قبائل العتوب نفوذا هم آل صباح، لكنهم لم يكونوا العتوب الوحيدين الذين استقروا في الكويت . فقد انضم إليهم آل خليفة والجلاهمة الذين احتلوا المرتبة الثانية من حيث الأهمية . وقد هاجرت إلى هناك على الأقل عدد من قبائل العتوب في أوقات متفرقة . وقد قسمت المدينة إلى ثلاثة قطاعات ، سيطر آل صباح على وسط مدينة الكويت . ومع أن التاريخ المحدد لاستقرار العتوب في الكويت غير معروف، إلا إنه كان بكل تأكيد في بداية القرن الثامن عشر ومن المحتمل أن يكون قبل سنة 1716. وهذا تاريخ عام، حيث أنه لم يكن لآل الصباح ولا لآل خليفة زعماء عشائر معروفين .

وحتى سنة 1752 مارس آل صباح قيادة داخلية محدودة برعاية شيخ بني خالد، سليمان الحمد. وعند وفاة سليمان في سنة 1756 انتخب صباح الجابر، الجد الأول للأسرة الحاكمة في الوقت الحاضر، كأول شيخ للعتوب مسجل في التاريخ . ومن المحتمل أن إطلاق اسم العتوب على هذه العشائر وتسميتهم بها تم بعد هجرتهم الرئيسة، وكلمة العتوب مشتقة من الأصل العربي عتب والتي تعني التنقل من منطقة إلى منطقة.

وفي سنة 1766 استوطن آل خليفة من العتوب في مدينة زوبارة في قطر. وأثناء استيطان آل خليفة في قطر، كانت البحرين المجاورة خاضعة لسلطة الشيخ ناصر المدخور، العربي العماني حاكم بوشير على الساحل الإيراني . ونتيجة للعداء الذي نشأ بين بوشير والمناطق التي احتلتها عشائر العتوب دفعت الشيخ ناصر للقيام بهجمات على زوبارة في سنة 1778 و1782. وفي هجمة انتقامية مضادة ومشتركة قادها آل صباح وآل خليفة

حيث انتصروا على الشيخ ناصر وفرضوا سيطرتهم على البحرين، وتمكنوا من تخليص البحرين من الاحتلال الإيراني وأزالوا التأثير الإيراني على المناطق الحيوية التي تحت سيطرتهم مما مكن العتوب الوصول إلى مواطن اللؤلؤ الغنية في الخليج كما وفر لهم أيضا موقعا استراتيجيا عند منتصف الطريق استفادت منه نشاطاتهم التجارية المتزايدة. وكان آل صباح، على وجه الخصوص، في وضع تجاري ممتاز، من حيث إمكان الوصول للطرق البرية والبحرية المتوافرة لهم . كما أن القوافل الآتية من حلب، كانت تتوقف هناك بانتظام، وقد ساعدتهم الإيرادات في بناء أسطول قوي جدا . وقد أسهمت علاقات العتوب الجيدة مع القوى الأجنبية، خصوصا البريطانيين، في تجنبهم للتورط في القرصنة حيث كانوا الوحيدين الذين لم يجبروا على التورط في نشاط القرصنة من بين سكان منطقة الخليج . إضافة لذلك، فإن اختيار العتوب للاستيطان في المناطق شبه الخالية نسبيا يسر لهم سبل التجارة البرية والبحرية بدون دفع ضرائب أو أتوات للآخرين.

حاكم الكويت الثاني، عبدالله آل صباح، خلف والده في سنة 1762. وقد أرست فترة حكم عبدالله الطويلة المزدهرة التي امتدت حتى وفاته في سنة 1812، أنماطا لمستقبل التطور السياسي والاجتماعي للكويت الذي ساد حتى اكتشاف النفط وفي بعض الحالات بعده. وقد واصل عبدالله العلاقات الحميمة بالبريطانيين التي بدأها والده. وفي سنة 1793 دعا البريطانيين للإقامة في الكويت، حيث مكثوا عامين حتى زال الخطر عن مينائهم البصرة. وردا على هذا الجميل ساعد البريطانيون في الدفاع عن عبدالله ضد الهجمات التي قام بها الوهابيون في سنة 1795. ولم يكن العثمانيون في العراق ولا الإيرانيون أقوياء بالدرجة التي تسمح لهم بالتدخل في النفوذ التجاري الكويتي المتصاعد في القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر. ومع اعتراف الشيخ عبدالله الصباح (1866-1892) بسلطة العثمانيين على الكويت ، فقد كان تأثير هذه السلطة في حدوده الدنيا . وكان الشيخ

مبارك الصباح (1895–1915) حاد البصيرة ليدرك أن العثمانيين سيكونون في القريب مهددين أساسيين لبلده، لذلك وقع اتفاقية في سنة 1899 مع بريطانيا، يتولى البريطانيون بمقتضاها مسؤولية الشؤون الخارجية الكويتية وحمايتها من القوى الخارجية، وفي مقابل ذلك التزم مبارك بعدم إقامة علاقات مباشرة مع القوى الخارجية وأن لا يتخلى لهم عن أي أرض بالبيع أو الإيجار. وحتى عام 1961م لم تكن هناك أي تغييرات في جوهر هذه الاتفاقية ، وإذا كان قد ظهر أي تغيير، فهو أن العلاقات صارت حميمة أكثر نتيجة للمصالح البريطانية – الكويتية المشتركة.

وكانت الأوضاع في البحرين تعاني من الاضطرابات الشديدة ذات الجذور التاريخية عندما احتل عتوب الكويت زوبارة . وحكم آل خليفة البحرين بصفة مبدئية من زوبارة لكنهم وطنوا أنفسهم بصفة دائمة في البحرين بين أعوام 1796م و 1798م وذلك نتيجة للهجمات العنيفة التي قام بها الوهابيون على زوبارة.

وفي أواخر القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر، ادعت قوى كثيرة في الخليج أحقيتها في البحرين. فقد حكمت البحرين أول مرة بواسطة بني عبد القيس، وبعد ذلك حكمت على التوالي بواسطة، الأمويين، ثم حكمها العباسيون، ثم الإيرانيون، ثم البرتغاليون، وبعد ذلك عرب جنوب عمان ، مما جعل كثير من المدعين يدعون بأحقيتهم لها وينازعون آل خليفة فيها . ودعاوى هؤلاء المدعين متضاربة بسبب التغير المتعاقب فيما يسمى بالبحرين . فحتى بداية القرن السادس عشر كانت البحرين كيانا جغرافيا لا يتضمن فقط الأرخبيل الحالي لكنها تتضمن أيضا ساحل الخليج من البصرة إلى مضيق هرمز.

ونتيجة لأعمال القرصنة المتكررة بواسطة القواسم، والتي شجعت البلدان العربية الأخرى على الالتحاق بهذا النوع من النشاط ، قام البريطانيون في سنة 1819م بهجمة قوية ثالثة ضد رأس الخيمة، حيث مقر

رئاسة القواسم لتأديبهم . ومع أن البحرينيين لم يعارضوا أبدا ممارسة نشاطات القرصنة إلا إنه نتيجة لكونهم عانوا من هذه القرصنة أكثر مما نالوا ، قامت البحرين في سنة 1820م بتوقيع معاهدة سلام عامة مع بريطانيا، وافقت بمقتضاها بعدم التورط في القرصنة ما لم تكن هنالك حالة حرب معلنة. هذه المعاهدة شكلت سابقة لبلدان ساحل الخليج الأخرى لكي يحتذى بها . واستمرت علاقات الصداقة البحرينية – البريطانية تزدهر حيث توجت في سنة 1861م بتوقيع الطرفان على معاهدة دائمة للسلام والصداقة، والتي تضمنت تنظيم مواضيع الرق، والتجارة البريطانية مع البحرين، والعدوان البحري.

ومع أن النفوذ العثماني في شبه الجزيرة العربية، كان إلى حد بعيد أسميا وأكثر تركزا في الحجاز، إلا أنه ونتيجة لخوف الباب العالي من القوة المتنامية للغارات الوهابية بدأ السلطان العثماني يقوى نفوذه ، مما جعله يرسل مندوبه محمد علي باشا حاكم مصر لإخضاع الوهابيين في الجزء الشرقي من شبه الجزيرة العربية. ولكون العثمانيين قرروا زيادة نشاطهم في المنطقة ، زاعمين مرة أخرى تبعية البحرين لسلطتهم وكان ذلك في سنة 1870م و1874م . والسلطة العثمانية في الخليج لا تعنى أكثر من تقليل النفوذ البريطاني هناك. ولحماية كل من المصالح البريطانية والبحرينية، وقعت معاهدات في سنة 1880م و 1889م ، حيث وافق الشيخ عيسى بن على آل خليفة، على معاهدة مشابهة لتلك المعاهدة التي وقعها البريطانيون مع الكويت، والتي تنص على إن لا تباع أو تستأجر الأراضي البحرينية دون رضاء البريطانيون وأن لا تقام أي علاقات مع القوى الخارجية دون موافقة البريطانيون . وبموجب هذه المعاهدات تم تعيين المندوب البريطاني على البحرين في سنة 1902م. وتنفيذا لهذه المعاهدات، وقعت بريطانيا نيابة عن البحرين معاهدة مع العثمانيين في سنة 1913م، تؤكد استقلال البحرين كدولة

ذات سيادة. كما ألزمت اتفاقية أخرى عقدتها بريطانيا مع ابن سعود الملك المستقبلي للسعودية، في سنة 1916م تقضي بعدم المحاولة لفتح البحرين.

السعودية

في عام 1902م أعاد عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود وهو في الحادية والعشرين من العمر فتح مدينة الرياض ومعه قوة من خمسين رجلا في هجوم صباحي مثير. ونتيجة لإدراك الإمام عبدالرحمن والد الأمير عبدالعزيز بأن ابنه عبدالعزيز يمتلك القدرات القيادية الفاعلة والمؤثرة أسرع في التنازل عن لقبة كأمير ومنحه لابنه ليصبح لقب عبدالعزيز بعد ذلك الأمير عبدالعزيز (ابن سعود) واحتفظ الإمام عبدالرحمن باللقب الديني الإمام وهو لقب توقف استعماله بعد وفاة الإمام عبدالرحمن وذلك نتيجة لرغبة الأمير عبدالعزيز باستخدام الألقاب المدنية. وبمجرد أن أكد ابن سعود سيطرته على مجريات الأمور وتثبيت قيادته، انخرط ابن سعود في معارك موفقة مع آل الرشيد وحلفائهم من الأتراك في الاحساء وتمكن من خلال هذه المعارك من إعادة إنشاء الحكم السعودي في نجد. ونتيجة لخضوع منطقة الأحساء والحجاز لسيطرة العثمانيين فقد اضطر ابن سعود حاكم نجد أن يقبل بالسيادة الاسمية للدولة العثمانية على منطقة نجد خاصة بعد أن استطاع شريف مكة المعين من قبل الدولة العثمانية كحاكم للحجاز أن يعتقل أحد أخوان ابن سعود ويحتفظ به أسيرا فترة من الزمن. وانتظر ابن سعود حتى تم الإفراج عن أخيه حيث بدأ على الفور بإلغاء السيادة العثمانية على نجد كما طرد العثمانيين من الأحساء في عام 1913م وأصبحت الحدود من الكويت حتى قطر تحت الحكم السعودي.

ولقد عرف ابن سعود منذ البداية أن الولاء لآل سعود كقوة حكم مدني ليست بالقدر الكافي لتحفظ رجال القبائل سريعي التحول في ولائهم وغير الثابتين في التزاماتهم. وقد وجد ابن سعود أن الدعامة الأساسية التي يحتاجها للمحافظة على الولاء المطلوب تكمن في إعادة تفعيل الدعوة

الوهابية وهي الدعوة التي كان ابن سعود يعد من أكثر المعتقدين بها والمتحمسين لها. ونظرا لأن الطبيعة الصحراوية القاسية قد أرغمت القبائل البدوية على حياة التقشف والزهد فقد استجابوا بحماس لهذه الدعوة حتى وإن أدى ذلك إلى فرض التقشف على الآخرين. وبدأت الدعوة الوهابية بدعوة البدو وتشجيعهم على ترك حياة البداوة والهجرة إلى الهجر والاستيطان فيها وذلك بقصد تحقيق ثلاثة أغراض أولها تحطيم الولاء القبلي واستبداله بالولاء للأخوة الإسلامية وهي الأخوة التي بدأت تتشكل في شكل الجماعات المستوطنة في الهجر والمكونة من خليط من قبائل متعددة. ثانيا تبيينه لرجال القبائل المستمر فوائد الانضمام إلى الإخوان وطبع أذهانهم بالوعظ الوهابي. وثالثا توفير احتياطات من المقاتلين الجاهزين عند الحاجة. وقد بلغ عدد الأخوان أحد عشر ألفا في عام 1912م . ومصطلح "الأخوان" يستخدم للمستوطنين في الواحات كهجر وللتنظيم المؤسسي لحركة الأخوان. وفي تطور لاحق أمرت القبائل البدوية عام 1916م بالانضمام إلى الأخوان ودفع الزكاة، كما طلب من شيوخ القبائل الالتحاق بحلقات تدريس فقه الدين الإسلامي التي كانت تعقد في مسجد الرياض وقد تم تشجيع هؤلاء الشيوخ على أن يبقوا في الرياض ويصبحون جزءا من بلاط ابن سعود، وبحرمان الأخوان من قائد قبلي مقيم فإن ابن سعود كان يأمل في تحويل ولاء الأخوان لنفسه ولحركته ولآل سعود.

وخلال الحرب العالمية الأولى فضل بعض من العرب الأتراك والعرب البريطانيين أي مجموعات القوى العربية المتحالفة مع العثمانيين والقوى العربية المتحالفة مع البريطانيين أن تكون كل الجزيرة العربية خاضعة لحكم السعوديين ، إلا أن آل الرشيد تحالفوا مع العثمانيين ، وتحالف الشريف حسين الذي كان يتطلع إلى أن يعترف به كسلطة عليا مستقبلا مع البريطانيين . ومع أن البريطانيين كانوا واعين لما يجري في المنطقة إلا أنهم وعلى الدوام أساءوا تقدير قوة ابن سعود المتنامية، خاصة عند محاولة

البريطانيين إقناع ابن سعود لينضم إلى الثورة العربية الكبرى ضد العثمانيين. ولكون الانضمام في هذا الإطار يعني تبعية ابن سعود للشريف حسين فقد رفض ابن سعود بإصرار القيام به، خاصة وأن هذه التبعية لو تمت سوف تضعف قواته التي لم تكن جاهزة بعد للقيام بغارة رئيسية في الحجاز ضد العثمانيين ، لذلك جرت عدة مباحثات بين ابن سعود وبريطانيا انتهت في عام 1916م حين اعترفت بريطانيا بموجبها بابن سعود أميرا على نجد والحسا ومنحه مساعدة شريطة عدم القيام بأي نوع من الوسائل الهجومية أو المؤذية ضد الشريف حسين ولتشجيعه على مواصلة جهوده ضد ابن رشيد ومواصلة الهجوم عليه.

وفي عام 1916م طرد الشريف حسين الأتراك من الحجاز بمساعدة لورنس، وهو بهذا العمل ودون قصد منه مهد الطريق لعدوه ابن سعود، وبفضل دعم ومساندة قوات الأخوان امتدت سيطرة السعوديين إلى ضواحي حائل عاصمة آل رشيد، وفي عام 1917م صرف ابن سعود النظر عن مهاجمة الحجاز واحتوى نفسه في توحيد ودمج المناطق المحيطة به.

بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى ونتيجة لدعم بريطانيا وفرنسا لأبناء الحسين عبدالله وفيصل ، فقد تم تتويج عبدالله ملكا على الأردن وفيصل ملكا على العراق، وعندما بدأ كل من فيصل وعبدالله في إجراء مباحثات مع ابن رشيد في حائل اضطر ابن سعود للقيام بعمل حازم للحيلولة دون أن تطوقه قوة الهاشميين، لذلك قام الأخوان بالاستيلاء على حائل عام 1921م ومن ثم تزوج ابن سعود أرملة سعود بن رشيد الذي قتل قبل عام بواسطة أحد أقربائه من آل الرشيد. وتبنى ابن سعود أبناء أرملة ابن رشيد وتصالح مع أقربائها وبذلك حال دون مزيدا من تحالفات آل الرشيد التي قد تتعارض مع مصالحه. كما أن فتح حائل شجع قوات الأخوان على القيام بغارات ناجحة ومتعددة على الحدود الأردنية ومن ثم على مهاجمة مواقع داخل الأردن بدون موافقة بن سعود.

إن سلسلة الهجمات الحدودية الناجحة علـــى الأردن التـــي قادهـــا الأخوان شجعت قواتهم على غزو المناطق الداخلية دون أوامر صادرة لـهم، فاستولوا على مدينة القريات في منطقة الجوف وذبحوا سكان طريف لكنـــهم في نهاية الأمر انهزموا وأرغموا على التقهقر جنوبا تحت ضغط قوة قصـف قاذفات القنابل التابعة لسلاح الجو البريطاني، واستكمل ابن سعود المغضوب عليه نتيجة لموقفه المرن مع البريطانيين القضاء على الناجين منهم .

ولقد بدأ عبدالعزيز مباحثاته مع الوزير البريطاني المقيم في العـراق السير بيرس كوكس حول الحدود المتنازع عليها مع العراق والكويت، حيـث تم تحديدها وترسيمها كما تم الاتفاق على المناطق المحايدة والتي قد تكـــون سببا في الاحتكاكات المستقبلية.

ركز عبدالعزيز جهوده على الحجاز التي أعلن فيها الحسين نفســـه ملكا عليها لكن شعبيته كانت محدودة بسبب الضرائب الكبيرة التي فرضـــها على السكان والتدني المريع في الخدمات العامة. ونتيجة لكـــون الأخـــوان كانوا شغوفين بحب الحجاز لوجود الأماكن المقدسة فيه مما جعلهم متعجليـن وثائرين ومتلهفين على تخليصه من سيطرة الشريف حسين ، فقد أدرك ابـن سعود أن الأخوان لن يخمـــدوا قبـــل الـــهجوم والقضـــاء علـــى الشـــريف حسين.وتحقيقا لذلك قام الإخوان في سنة 1924م بهجوم كاسح علـــى مدينـــة الطائف التي أبلى سكانها في هذا الهجوم بلاء حسنا قبل أن تسقط وتستسـلم. وبدأ جيش الأخوان الزحف بحذر للهجوم النهائي على مكة المكرمة. وقـــد أدى إستمرار ضغوط الإخوان العسكرية المستمرة إلـــى مغـــادرة الشـــريف حسين الحجاز على الرغم من محاولته لاكتساب المهابة عن طريق إعـــلان نفسه خليفة لكل المسلمين. وسقطت كل من مكة المكرمة والمدينة المنـــورة في أيدي الإخوان دون قتال وبالتالي سيطر الملك عبدالعزيز على الحجـــاز وأنصب اهتمام الأخوان على تدمير كل المظاهر الدينية التي تنحرف عـــن معتقداتهم وهدمها وإزالتها. ومع أن الإخوان استمر تواجدهم في المدينتيـــن

المقدستين إلا أن الأخوان الأكثر تعصبا سرعان ما أعيدوا إلى مناطقهم النائية بالداخل. وفي سنة 1926م توج الملك عبدالعزيز ملكا على الحجاز.

ولكون البريطانيين يرغبون في دعم عبدالعزيز رأوا أن الأولوية تقتضي حسم النزاع الحدودي بين السعودية وحكام البلدان جيران السعوديين وحلفاء بريطانيا الذين يتمتعون بحمايتها.

لذلك جرت سلسلة من المباحثات بين الملك عبدالعزيز والسير جلبرت كلايتون اختتمت باتفاقية جدة في سنة 1927م والتي بموجبها اعترفت بريطانيا بسيطرة الملك عبدالعزيز على المنطقة الممتدة من الخليج العربي شرقا إلى البحر الأحمر غربا إلى نجران وجازان جنوبا وواضعة حدودا لتوسعاته. في نفس السنة توج عبدالعزيز ملكا على الحجاز وسلطانا لنجد وملحقاتها.

اتفاقيات الحدود ازدادت تعقيدا نتيجة لعدم تقبلها أو القبول بها من قبل الأخوان ورفضوا فكرة نصحهم بعدم غزو العراق. إضافة لذلك هناك برز بعض قادة الأخوان المتعصبين الذين يعارضون توثيق العلاقات السياسية والاقتصادية مع الكفار واستعمال منتجاتهم ذات العلاقة بالوسائل الحديثة للحياة المدنية مثل السيارات والطائرات والتليفونات والتلغراف . هذا الرفض اتضح في تمرد الأخوان وتطوراته التي انتهت بمواجهتهم وكسر شوكتهم وهزيمتهم في معركة السبلة في سنة 1929م، وما ترتب على تلك الهزيمة من إخلاء أهم هجرهم (الغطغط) من سكانها وتدميرها.

بعد فترة من الانتظار أعلن الملك عبدالعزيز في سنة 1932م تغيير مسمى الدولة من مملكة الحجاز وسلطنة نجد وملحقاتها ليكون أسمها المملكة العربية السعودية.

ولقد أدرك الملك عبدالعزيز أن شريعة حكمه تقوم على التفسير السلفي الوهابي للإسلام وعليه فإن دوره كما حدده العلماء هو الحكم بما أنزل الله وتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية على مواطنيه في الجزيرة

العربية، وفي نفس الوقت أصبح الملك عبدالعزيز صديقا للقوى العظمى ومدركا حقيقة أن استمرار السياسة الدينية المتعصبة سوف يعوق تدشين التكنولوجيا الحديثة.وعليه فقد تبلورت قناعته التي مؤداها أنه إذا أرادت السعودية أن تعيش وتستمر فيجب عليها أن تقود عملية التحديث أو تواجه نتائج عملية تكرار التمرد القبلي العربي الدائم وتنهزم على أيدي القوى العظمى.

في البداية نظر سكان المدن في الحجاز إلى القوات السعودية على أنها مجموعة أخرى من الغزاة الأجانب وبالطبع هم ليسوا متحضرين كمعظم الغزاة الذين عرفهم أهل الحجاز. في داخل الحجاز بدأ الملك عبدالعزيز في إحكام الحبل بين قوى التحديث والمحافظين من أهل الدين. ففي سنة 1929م تشكلت هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهي قائمة على التعاليم الوهابية والهدف منها اجتثاث التقاعس عن أداء الواجبات الدينية والممارسات الضارة روحيا مثل التدخين وشرب الكحول والغناء. في نفس الوقت تكونت الهياكل الإدارية للحجاز والتي تضمنت وجود مؤسسات حكومية. إن تشريع سنة 1926م أسس المبدأ المهم الذي يقول إن القانون المدني يمكن أن يكون مكملا ومتمما للشريعة. ودعا الملك عبدالعزيز إلى مؤتمر عام في مكة في العام 1929م لتنظيم شئون الحج. ولقد كان المؤتمر لفتة بارعة في فن العلاقات العامة لكي يتأكد القادة العرب الآخرون من أن المدن المقدسة ليست في أيدي البدائيين من رجال القبائل.

وتكونت السلطة من جناحين – جناح السلطة السياسية المدنية اختص بها لملك عبدالعزيز والسلطة الدينية التي شارك فيها العلماء (المطوعين) الملك عبدالعزيز. على المستوى المدني بدأ الملك عبدالعزيز في تشكيل نظامه الحكومي الرسمي في الحجاز. المدن الرئيسة أديرت بواسطة المديرين المحليين والخبراء لكن معظم الموظفين الكبار كانوا من النجديين.

أما القصر ككل فقد قسم إلى أربعة أجزاء: نجد وكان يحكمها ولي العهد الأمير سعود، والحجاز يحكمها الابن الثاني الأمير فيصل مع درجة خاصة من النيابة، والأحساء كان يحكمها عبدالله بن جلوي وعسير كان يحكمها تركي السديري. ولقد عكس الموقعان الأخيران الفهم الواسع والنبوغ الحاد للملك عبدالعزيز للسياسة القبلية وذكائه في التعاطي معها. الأمير جلوي خال للملك عبدالعزيز وصديقه ورفيقه لمدة طويلة لكنه في نفس الوقت منافس خطير. أما تركي فهو من أقرباء الملك عبدالعزيز وعضو إحدى القبائل المتنفذة والتي تقطن منطقة سدير القريبة من الرياض. وبدأ الملك عبدالعزيز في إزالة المنافسين القبليين وتعزيز التلاحم مع المواطنين بوسائل عدة منها أنه تزوج شخصيا 20 مرة زواجا ملكيا. واستكمالا لتكوين مؤسسات الإدارة الحكومية تم تعيين كل من وزراء الخارجية والمالية في السنوات 1931 و1932م على التوالي وتم تعيين وزير الدفاع في سنة 1944م ووزير الداخلية في عام 1951م. وفي أكتوبر 1953م قبيل وفاته بفترة بسيطة عين الملك عبدالعزيز مجلسا للوزراء يرأسه ولي العهد الأمير سعود. الأقسام الموجودة تم تحويلها إلى وزارات كما تم إحداث وزارات جديدة. ومع أن وزير كل وزارة كان عضوا في مجلس الوزراء، إلا أنه ليس لدى هذا المجلس أي سلطات تشريعية أو تنفيذية. فمجلس الوزراء ليس أكثر من لجنة عامة يرفع توصياته للملك باعتباره الوحيد الذي يملك السلطة لتنفيذ القانون. معظم الوزارات تم إنشاؤها في الحجاز لكنها نقلت في منتصف الخمسينات إلى الرياض وقد أنشئت هذه الوزارات دون مناقشة مسألة موقع قلب المملكة. إن التجارب الوزارية المبكرة داخل الحجاز ساعدت في إحداث التكامل الثقافي لتلك المنطقة مع نجد.

وإدراكا من الملك عبدالعزيز للحاجة الملحة لوجود قوة عسكرية حديثة جلب الخبراء من العديد من الدول العربية، ولتخوفه من السيطرة السياسية للأجانب ورد الفعل من القادة الدينيين فقد نزع إلى الاعتماد التام

على الدعم الذي يقدمه له أبناؤه وعرب شبه الجزيرة وفي مقدمتهم الشيخ عبدالله السليمان الذي أصبح بعد ذلك وزيرا للمالية.

كما أن براعة الملك عبدالعزيز وسحره الخاص وإحساسه بالعدل واهتمامه العميق بشعبه خفف كثيرا من تأثيرات سلطته المطلقة. فقد كان يحكم كقائد قبلي ويعقد مجلسه أسبوعيا حيث يستطيع كل مواطن ملاقاته وطرح مشكلته عليه وطلب المساعدة منه.

وعندما أصبح واضحا أن المسافات البعيدة تمنع بعض المواطنين من المجيء إليه مباشرة لطلب المساعدة استجاب لذلك الأمر بمزيج من البراعة القبلية والحضارية. فبدلا من إرسال الوفود والذي يبدو حلا منطقيا فقد وسع من الخدمات البريدية والتلغراف بحيث أن المواطنين يستطيعون الوصول إليه مباشرة. ولقد كان يستشيط غضبا عندما يجد أن الرسائل حجزت عنه جزئيا أو كليا ولقد كان يأمر بجزاءات قاسية للمخطئين.

إن انعقاد المجلس هو عادة قبلية قديمة مع أنه لم يكن دائما هو الوسيلة المثلى. وينظر شيوخ القبائل البدوية للمجلس نظرة تتمثل في أن المجلس هو وسيلة مثلى من الوسائل التي تحقق المساواة بين الناس حيث من المتوقع أن يتمكن الملك من الاستماع من الجميع وأمام الجميع وفق قيم القيادة القبلية التي تكونت عبر آلاف السنين. في الأيام السالفة كانت الشجاعة والكرم هي مقاسمتك الطعام لأي أحد بطريقة عادلة، أما في المملكة الحديثة فيعني التكرم بإعطاء المنح الوظيفية والمكافآت النقدية.

إن نمط الأبوة التقليدي الذي مورس في الحكم، انتقل أيضا إلى السياسة المالية، فكان كل دخل الدولة عبارة عن محفظة خاصة للحاكم وكان ينفق بسرعة شديدة تماما مثل ما أتى. في أواخر العشرينيات كان الدخل يأتي بصفة رئيسية من الضرائب والتجارة أثناء الحج، ولقد كان الملك عبدالعزيز متشوقا لجعل الخدمات الصحية والتعليمية متاحة للجميع وأيضا العمل على توسيع شبكة النقل التقليدية ونظام الاتصالات. ولقد كانت السيارات

والطائرات والتلغراف اللاسلكي موجودة ومتاحة لكنها كانت غير كافية لتلبية الحاجات. وفي ضوء الإفلاس المادي الذي تعاني منه البلاد آنذاك وعلى الرغم من شعور العلماء المعادي للأجانب منح الملك عبدالعزيز في سنة 1923م أولى امتيازات التنقيب عن البترول لشركة بريطانية. ولقد اعتمد العديد من امتيازات التنقيب الأخرى لتأمين التمويل اللازم لمشاريعه وطموحاته، وقد كان من ضمن هذه الشركات شركة استاندر أويل أوف كاليفورنيا والتي يرمز لها بـ (سوكال). بعد اكتشاف النفط بكميات ضخمة في منطقة جبل الظهران تكونت شركة الزيت السعودية الأمريكية (أرامكو) ونتيجة لاستمرار الحرب العالمية الثانية فقد كانت تنمية هذه الحقول بطيئة نسبيا، كما أن عائدات النفط التي تسلمها الملك لم تتجاوز 4 ملايين دولار أمريكي واستمر الدخل في حدود هذا المستوى حتى عام 1944م. بحلول عام 1948م كان دخل المملكة السنوي قد قارب 85 مليون دولار وزاد بمتوالية هندسية كل سنة بعد ذلك.

بالنسبة للتنمية الداخلية فمع أنها بدأت بالفعل إلا أنه كانت بطيئة، لقد أنشئت مؤسسات الخدمات الاجتماعية ووضعت المشاريع الزراعية التجريبية وبدأت الدولة تحصل على وسائط أو وسائل الدولة الحديثة والصناعات المتقدمة إضافة إلى بروز شركات البترول شديدة الازدهار. لكن كل ذلك بدأ يحدث في ظل إطار واحد هو أن الملك عبدالعزيز والدولة شيء واحد لا انفصال بينهما . وعندما تدهورت صحته فإن أسلوبه القبلي للحكم برهن على عدم كفايته للسيطرة على دولة ذات ثراء ينمو بشدة، مما أدى إلى تبديد ملايين من الريالات المنافي للمصلحة العامة من قبل بعض أعضاء الأسرة الحاكمة.

وبوفاة الملك عبدالعزيز في سنة 1953م كان أعضاء الأسرة الحاكمة الأكثر طمعا هم القانعين والراضين في المملكة كما كان يشاركهم في هذا الرضا الأجانب الذين كانوا يستفيدون من النفط ومن مبيعاته للحكومة

والأسرة الحاكمة. بالنسبة للملك عبدالعزيز فقد كانت النقود لا تعني لـــه إلا شئ ينفق فقط. في سنة 1930 اختار على نحو عفوي قيمة عملتـــه المعدنيـــة الجديدة النيكل بالنسبة للريال. وبتقدم العمر أصبح الملك قليل الحركة وبـــدأ يدرك ظهور عدم مقدرته الإدارية وإنها أصبحت أقل مما يجب .

وقد كتب جون فيلبي في سنة 1934، وهو واحد من المقربين غـــير العرب لدى الملك عبدالعزيز ما يلي: أن الأشياء في الوقت الحالي مربكـــة بدرجة مخيفة وكل واحد يبدو أنه سارق للملك وللحكومة بأسرع ما يمكـــن ولقد ساعدهم الملك على ذلك بشدة – إذ أنه لا يتحمل النقاش في هذا الأمـــر ودائما ما يهون الأمور ويصفح عن كل واحد يعتذر بسيل من الكلمات.

ولقد نقل المهتم بالشئون العربية السيد جوزيف مالون عن مقـــاول لبناني كون ثروة في المملكة العربية السعودية قوله بأن الثلاثـــة ســـنوات الأخيرة من حكم الملك عبدالعزيز (هي السنوات الجميلة فقد كان الملـــك لا يعير الاهتمام للفرق بين الألف والمليون).

وعاد أعضاء الأسرة المالكة الذين تعلموا بالخارج مذهوليـــن مـــن التخلف وخطوات التغيير البطيئة في الوقت الذي يرى فيه المحافظون والقادة الدينيون أن التغيير حدث بسرعة شديدة وأن التمدن ووجود الأجانب كـــان لهما التأثير الذي توقعوه بالضبط. هذا التأثير ملحوظ بشدة وســـط أعضـــاء الأسرة المالكة الذين لا تطالهم القوانين.

العمال السعوديون بأرامكو الذيـــن يشـــاهدون المنشـــآت التعليميـــة والصحية والترفيهية التي في متناول موظفي شركات الزيت من الأمريكييـــن والأجانب ممتعضون من القادة الدينيين الذين لا يسمحون لهم بالوصول لهذه المنشآت. كما أنهم ممتعضون أيضا من حقيقة أن حكومتهم لا توفر لهم نفس هذه المزايا. إن عدم الرضاء بالواقع الاقتصادي بلغ ذروته بإضراب عمـــال أرامكو في سنة 1953م. وتأسيسا على تقرير اللجنة الملكية التي تقصت هـــذا

الإضراب فإن القادة المتحدثين باسم هذا الإضراب قد سجنوا كما منع تكوين النقابات.

لقد ادخر الملك عبدالعزيز كل ما في وسعه من جهود أخيرة لاستعادة الشعبية للأسرة المالكة عندما وافق على محاولة توسيع الدولة باحتلاله لواحة البريمي وهي المنطقة التي تشملها اتفاقية جدة الموقعة سنة 1927م. لقد كانت هذه المغامرة خاسرة كليا كما تضاءلت هيبة المملكة بصورة ملحوظة خصوصا في العالم الغربي. كما أن معظم الدول العربية نظرت للمملكة بصورة غير مستحسنة أكثر مما نظر الغرب.

لقد آلت كل مشاكل حكم الملك عبدالعزيز والقليل فقط من مزاياه الشخصية لابنه وخليفته الملك سعود (1953–1964م). ولقد كانت أول المهام التي كلف بها الملك سعود الإدارية في المملكة الوليدة أثناء حياة والده هي توليه حكم نجد. ولقد اعتمد سعود على الموروث من عبقرية شخصية والده القيادية واكتفى بدفع المال من أجل الحفاظ على الولاء القبلي في نجد واسترخى لينعم بثمار مزايا الإيرادات الملكية النفطية وغير النفطية.

وبالإضافة إلى افتقار الملك سعود إلى المزايا والخصائص اللازمة لقيادة قادة القبائل ولعدم معرفته لاتباع بديل آخر فإنه عندما اعتلى عرش المملكة عزل وحجب نفسه من هيكل الرعية واعتمد بقوة على المستشارين وغالبيتهم – بما فيهم السعوديون – كانوا مهتمين فقط بالمكاسب الشخصية والثروة والسلطة. لقد صرف سعود مبالغ طائلة للمحافظة على الإذعان القبلي لحكمه في مقابل تجنيد أعداد هائلة في حرس القصور الملكية أو الجيش الأبيض مما جعل الإيرادات لا تتواءم كثيرا مع مصروفات الملك سعود على القبائل . وحملة البريمي وتقديم العون المالي للحركة الثورية في الجزائر وغير ذلك من المصروفات غير المدروسة أرغم الدولة في عام 1958م على خفض قيمة الريال بما يقارب 80% وذلك على الرغم من عائدات النفط التي تزيد على 300 مليون دولار أمريكي.

لذلك تفاقم عدم الرضى حول مسألة المصروفات التي لا طائل منها والافتقار إلى التطور في مشاريع الخدمات العامة والمؤسسات التعليمية والأجور المتدنية للقوى العاملة المتنامية. لقد أصبح المواطنون مدركين للتفاوت الذي بدأ يظهر آنذاك في كل مكان في المملكة. ففي المنطقة الشرقية تواجد عمال أرامكو الأجانب الذين يعيشون على أطراف المدينة بصورة مرفهة ليسوا ببعيدين عن مستوطنات البدو التي يعيش ساكنوها في شظف من العيش كما كانوا في السابق. وفي الصحراء والهجر حيث تعيش معظم القبائل تلاشت ديموقراطية الصحراء وانتهت واستبدلت بالتصنيف الطبقي والأسرة المالكة والأجانب والإداريين ذوي الثقافة الغربية الذين يتلقون معاملة مختلفة عن باقي المواطنين. ولقد تغير كل شئ فظهرت طبقات متميزة لم تكن معروفة في الأيام الخوالي لحكم عبدالعزيز، وأصبحت هذه الطبقات تسكن في القصور الإسمنتية المزخرفة المستورد معظم موادها الخام من الخارج بدلا من السكن في البيوت المشيدة بالطوب واللبن وهو نفس المادة الخام التي يستعملها بقية المواطنين. وشاع استعمال الألقاب والأسماء الجديدة بدلا من استخدام الاسم الأول الذي كان الشيوخ والرعاة ينادون بعضهم بعضا. كما تغيرت الأزياء فأصبح للأغنياء أزياؤهم وللفقراء أزياؤهم بدلا من الأزياء التي كانت متشابهة من قبل.

لقد تعالت أصوات السخط من مصادر متعددة منها بصورة رئيسية الأمراء الأكثر تحررا وأبناء الطبقة المتوسطة الصاعدة الذين نالوا قسطا من التعليم بالخارج. هذا السخط المتصاعد وجد له مخرجا في أول صحيفة يومية صدرت في عام 1953م. وكانت استجابة الملك سعود الأولى لمواجهة هذا السخط إصدار أمر ملكي في إبريل من عام 1955م يقضي بعودة كل السعوديين المبتعثين للدراسة الجامعية الذين كانوا يدرسون بالخارج، وأن كل من يرفض الإذعان لهذا الطلب سوف يفقد حق المواطنة.

وفي محاولة لعدم تشجيع تكوين رد فعل حاد فقد منع الطلاب من التخصص في القانون والعلوم السياسية أو المجالات المشابهة. في سنة 1965م دعا عمال أرامكوا السعوديون إلى إضراب ثان. ولقد تميز هذا الإضراب بالشعارات الوطنية المناهضة للإمبريالية عاكسا الامتعاض من الاستغلال الأجنبي للموارد السعودية. ولمعالجة الموقف أصدر الملك سعود في حزيران 1956م أمرا يمنع مانعا باتا القيام بمزيد من الإضرابات وموضحا أن كل من يدعو لها أو يشارك فيها سوف يتعرض للعقاب ومنها عقوبة الطرد من الخدمة.

وبالرغم من هذا التشدد كانت هناك بعض الإنجازات الإيجابية. ففي سنة 1954م أنشئت وزارتا التجارة والصناعة والصحة بناءا على مبادرة من ولي العهد الأمير فيصل الذي اختاره الملك سعود ليكون رئيسا للوزراء ووزيرا للخارجية. كما زادت المخصصات المعتمدة للتخطيط المدني ومتطلباته هي والمواصلات والاتصالات والمدارس والطرق ومتطلبات الحجيج. كما زادت سلطات مجلس الوزراء في ظل قيادة الأمير فيصل لكن العديد من خططه (فيصل) عارضها الملك سعود وبعض إخوانه الذين يتقلدون مناصب عالية. ومن ناحية جوهرية بقيت السيطرة الداخلية والخارجية بيد سعود.

أما في مجال العلاقات الخارجية فقد اتبع الملك سعود رغبة والده وعزز من الوحدة العربية بمطالبته التعاون مع الرئيس المصري جمال عبدالناصر لتحرير فلسطين، ولقد وثقت علاقة المملكة العربية السعودية بمصر بمعاهدة الدفاع المشترك التي وقعت عام 1955م. كما تعاون الأمير فيصل وجمال عبدالناصر في تمويل مجهود عدم تشجيع الأردن للانضمام لحلف بغداد الذي يرعاه الغرب.

وعندما غزت القوات الفرنسية والبريطانية والإسرائيلية مصر عام 1956م نتيجة لتأميم جمال عبدالناصر لقناة السويس منح الأمير فيصل ما

قيمته 10 مليون دولار أمريكي لمصر وقطع علاقاته الدبلوماسية مع بريطانيا وفرنسا وفرض حظرا على شحنات النفط لهاتين الدولتين.

بالنسبة للعلاقات السعودية الأمريكية خلال السنوات الأولى لحكم الملك سعود فقد تعرضت للتدهور، كما انتقد الوطنيون السعوديون إيجار قاعدة الظهران الجوية للولايات المتحدة وأسمته امتيازا للإمبريالية الأمريكية. وفي سنة 1954م تم طرد بعثة النقطة الرابعة الأمريكية. كما أن الخلاف لم يقتصر على الحكومة الأمريكية بل امتد لإدارة أرامكوا التي اختلفت مع السعوديين حول نقل النفط بسفن يونانية والذي رأته أرامكو خرقا لاتفاقية الامتياز الموقعة بينهما.

لكن الخلافات السياسية مع الحكومة الأمريكية لم تستمر طويلا فقد تم إعادة تصحيح مسار التوجه الرئيس للسياسة السعودية في عام 1957م بعد الزيارة الناجحة التي قام بها الملك سعود للولايات المتحدة. في مؤتمره مع إزينهاور أيد الملك سعود مبدأ ازينهاور ووافق على تجديد إيجار قاعدة الظهران الجوية لمدة خمس سنوات.

لكن في الوقت الذي تحسنت فيه علاقة السعودية بالغرب تدهورت علاقتها في المقابل بمصر. فمع أن السعودية ومصر يعملان في الظاهر سويا وفقا لمصالحهما المشتركة في تأمين الاستقلال العربي وحمايته من التدخل الأجنبي، إلا أنه يوجد في الخفاء كثير من عدم الود والعداء الخفي بين الزعامتين في كلا البلدين . فقد جاء عبدالناصر إلى الحكم بعد أن خلع ملكا من عرش مصر وكان يشجع التوجهات الثورية في الأقطار العربية الأخرى. كما إن مفهومه عن القومية العربية وفكرته عن الوحدة العربية والاقتصاد الاشتراكي من الأمور الممقوتة من قبل الملك سعود وللعديد من السعوديين الذين يودون الإبقاء على مملكة مستقلة ذات توجه رأسمالي. إضافة لذلك يتعاون المصريون تجاريا مع السوفيت الذين رفض السعوديون الاعتراف الدبلوماسي بهم لتخوفهم من الشيوعية.

ولقد سبب الوجود الكثيف للملحقين العسكريين والمدرسين المصريين في المملكة العربية السعودية قلقا بين السعوديين وولد وجهات نظر غير مقبولة بين الجانبين. ولقد ذعر المسئولون السعوديون عندما توحدت سوريا ومصر في عام 1958م وحدة اندماجية لتكونا الجمهورية العربية المتحدة. ومن ثم تلاشت صدمة الوحدة التي نقلتها وسائل الإعلام قبل عن وجود مؤامرة مزعومة من قبل الملك سعود لإفساد هذه الوحدة واغتيال عبدالناصر مما دفع أعضاء أسرة آل سعود الكبار الراغبين في عدم الدخول في مشكلات مع الدول الأخرى بأن يلحوا على الملك سعود لينتحى عن السلطة لولي عهده الأمير فيصل.

وفي 24 مارس 1958م أصدر الملك سعود أمرا ملكيا يقضي بإعطاء الأمير فيصل السلطات التنفيذية في الشئون الداخلية والخارجية بما فيها التخطيط المالي. واستهل الأمير فيصل العمل ببرنامج تقشفي بدأ في سنة 1959م وقد تضمن هذا البرنامج تقليل المصروفات التي تمنح للأسرة المالكة مما مكنه من موازنة الميزانية وتثبيت سعر العملة وحل متاعب الديون المحلية. كما زاد الأمير فيصل سلطات مجلس الوزراء واتخذ موقفا محايدا في السياسة العربية. وقد أثار تخفيض ميزانية الأسرة المالكة سخط الملك سعود والمحيطين به، كما أن النزاع الذي نجم عن رغبة الملك سعود في إعطاء السيطرة الكاملة لأحد أبنائه على إحدى مصافي النفط ولد لدى الأمير فيصل قلقا متزايدا.

في يناير 1961م قدم الأمير فيصل ومجلس وزرائه استقالاتهم. وتولى الملك سعود على إثر هذه الاستقالة منصب رئيس الوزراء وعين أخاه الأمير طلال ذا الأفكار التقدمية وزيرا للمالية والاقتصاد الوطني . وقد تم تشكيل مجلس وزراء جديد مكون من العديدين الذين تلقوا تعليما بالغرب. وكان هناك دعاية كثيرة حول أداء الحكومة الجديدة لكن لم يكن هناك شيء مادي ملموس. وقد استنتج الأمير طلال أن تعيين الملك سعود له قد تسبب

في إعطاء فكرة خاطئة عن نواياه . لذلك ترك عمله ولجأ للقاهرة آخذا معه العديد من مؤيديه. وقد كان رد فعل الملك سعود على ذلك ردا غاضبا واتهم عبدالناصر بأنه حليف للصهيونية ويحاول هدم الإسلام. في هذه الأثناء اندلعت الحرب الأهلية في اليمن وكان ذلك في سبتمبر 1962م، ووصلت القوات المصرية لدعم الثوار ضد السعوديين الذين كانوا يدعمون الحكومة الملكية المخلوعة. في ذلك الوقت بدأ أن تدمير الملكية السعودية احتمالا غير مشكوك في إمكانية حدوثه.

وعلى إثر هذه المتغيرات عين الأمير فيصل في مارس 1962م نائبا لرئيس الوزراء ووزيرا للخارجية ليحل محل الملك سعود الذي كان في الولايات المتحدة الأمريكية لإجراء بعض الفحوصات الطبية. وفي أكتوبر من عام1962 ألح العلماء والعديد من الأمراء على الأمير فيصل بقبول تولي العرش لكنه رفض مستشهدا بوعده لأبيه بدعم الملك سعود. وبدلا عن ذلك أصبح فيصل رئيسا للوزراء مرة أخرى وعين الأمير خالد نائبا لرئيس الوزراء وشكل حكومة من بين مؤيديه. وتولى الأمير فيصل رئاسة القوات المسلحة وسرعان ما استعاد ولاءهم ورفع معنوياتهم.

وتنفيذا لدعوته للإصلاح أعلن الأمير فيصل خطة حكومية من عشر نقاط. الإصلاحات المتبناة في الحكومة تتضمن وعودا بإصدار دستورا، وإنشاء حكم محلي وتشكيل قضاء مستقل ومجلس تشريعي أعلى مكون من أعضاء متخصصين في العلوم الدينية والمدنية . وتعهد بالعمل على تقوية الإسلام وتشكيل لجنة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. والتزم على إن يتم التطوير المنشود من خلال تنظيم الاقتصاد والنشاطات التجارية، والعمل المتواصل لتنمية موارد البلاد. كما أكد على وجوب الإصلاحات الاجتماعية وأن تتضمن تدابير للضمان الاجتماعي وتعويضات للعاطلين عن العمل ومنح دراسية وأهم من ذلك إلغاء الرق.

وقد أدت المشاورات بين الأمير فيصل والرئيس جون كيندي إلى وعود من الولايات المتحدة بدعم خطط الأمير فيصل الإصلاحية وعلى دعم وحدة أراضي المملكة العربية السعودية. واستأنف العلاقات الدبلوماسية مع كل من بريطانيا وفرنسا مرة أخرى ودفع ديونهما المستحقة على السعودية.

ونظرا لكون مشاريع الأمير فيصل الإصلاحية ومتطلبات الميزانية الضرورية اللازمة لتحديث القوات المسلحة لمواجهة التغيرات الناجمة عن الثورة في اليمن تقتضي إيقاف أو التقليل من المخصصات الشخصية المقررة للملك ، صدر في سنة 1964م بيان مصادق عليه من الأسرة المالكة والعلماء يطلب تقليل سلطات الملك سعود وميزانيته الخاصة. وكان رد فعل الملك سعود الذي كان في رحلة واسعة ومكلفة في أوروبا مع حاشيته الضخمة غاضبا غضبا شديدا. ولقد حاول الملك سعود كسب التأييد لكي يرجع للسلطة لكن الأسرة المالكة والعلماء وقفوا ضده بشدة.

في الثاني من نوفمبر 1964م أصدر العلماء فتوى أخيرة حول هذا الموضوع ، تم بموجبه خلع الملك سعود وتتويج الملك فيصل ملكا على البلاد. لقد أنهى هذا القرار عقدا من الضغط الداخلي والخارجي لإزاحة الملك سعود وتأكيد سلطة ووحدة القوى المحافظة وسط الأسرة الحاكمة السعودية.

كان الملك فيصل (1964-1975م) أول ملك في المملكة العربية السعودية يدرك أهمية وضخامة مهمة التحديث وقد قبل تحمل المسئولية الكاملة لتحقيقها. وبدأ مهامه كملك جديد للبلاد بخطوتين رسميتين وقائيتين وذلك لتأمين الدولة من المخاطر المحتملة داخليا وخارجيا وتمكن من البدء في تنمية البلاد بدون عوائق . ففي أول شهر من حكم الملك فيصل تم اختيار الأمير خالد الأخ غير الشقيق للملك فيصل وليا للعهد، وعليه فقد ضمن أن الخلافة لن يعترضها أي نوع من القوى السياسية للأسرة .والخطوة الثانية كانت تعيين الأمير سلطان الأخ الآخر غير الشقيق وزيرا

للدفاع والطيران، وكلف الأمير سلطان بتحديث الجيش وإنشاء نظام دفاع بري وجوي لحماية الدولة وثروتها النفطية من الغزاة الأجانب.

وتمشيا مع حرص الملك فيصل بالتعليم ومؤسساته وجه بزيادة الاعتمادات المالية بصورة جوهرية لجامعة الملك عبدالعزيز بجدة كما أمر بافتتاح جامعة البترول والمعادن بالظهران. وعلى الرغم من قناعة الملك فيصل بأن النفوذ الأجنبي غير مرغوب فيه إلا أنه أدرك أن وجود الأجانب شر لابد منه طالما ظل السكان على أميتهم وجهلهم وغير قادرين على تولي الوظائف العديدة الملحة بالدولة. لذلك أمر الملك فيصل بتكوين اللجنة المركزية للتخطيط لتحديد أولويات التنمية وتطوير الآليات اللازمة لتحقيقها. وكانت النتيجة أن عائدات النفط أنفقت على الاستثمارات التي اختيرت لإحداث التنمية الاقتصادية والاجتماعية .

ولمواجهة الأفكار الثورية المستمرة المزعجة التي يبثها القادة العرب خصوصا عبدالناصر، دعا الملك فيصل لمؤتمر قمة إسلامي في سنة 1965م وذلك لإعادة تأكيد العمل وفق المبادئ الإسلامية في وجه المد المتنامي للأيديولوجيات الحديثة.

وخلال نفس العام 1965 سافر الملك فيصل إلى تركيا وباكستان وإيران والمغرب وتونس – وهي دول ذات علاقات وطيدة مع الغرب – لكي يثير اهتمام القادة الآخرين بموضوع المؤتمر والدعوة إلى حضوره. رفض جمال عبدالناصر مقترحات الملك فيصل الخاصة بالدعوة إلى المؤتمر ووصف عبدالناصر الغرض من المؤتمر هو محاولة مناورة سياسية لإبرام ميثاق إسلامي يهدف إلى توحيد الدول الإسلامية "الرجعية" ضد القوى الحديثة الضرورية للاشتراكية الثورية. وكان الملك فيصل يؤكد باستمرار أن هدفه الوحيد هو تشجيع الدول الإسلامية على مساعدة ومناصرة بعضها البعض.

وقد كان تقويم كل من الملك فيصل وعبدالناصر للموقف صحيحـــا. فالسعودية أصبح لديها في الستينيات عائدات تحصل عليها في العادة دول قد أجرت أصلا علميات تنموية راقية خلال فترة تمتد لقرون. وفوق ذلك ظلـت السعودية نموذجا لدولة إسلامية من العصور الوسطى وقـد صبـغ الملـك فيصل صفته الذاتية على آلية حكم مثل هذه الدولة. لقد فهم دوره الأســـاس الذي أعلن قبل اكثر من ألف عام وهو حماية وتأمين دار الإســلام وإيجـاد العيش الكريم للأمة. وتتضمن واجباته أيضا حماية ودعم الشـريعة بداخـل الدولة مما يوجب عليه أن يكون حاكما خيرا يكافح من أجل رفاهية شـــعبه دون تعريضهم لمخاطر أخلاقية.

إن تفاني فيصل لهذه المثل مستمد من جذور تنشئته في بيـت جـده لأمه، وهو سليل مباشر للشيخ محمد بن عبدالوهاب رائد إحياء علوم الديـن في القرن الثامن عشر. لقد نشأ فيصل في "بيئة بعيدة عـن الـترف وتتسـم بالشجاعة والجلد والصبر" وقد شجعته والدته على اكتساب القيم المنســجمة مع الزعامة القبلية. إن مثالية قيادة الملك فيصل الدينيـــة لا تلغـى فعاليتـه المدنية. وبالنسبة له فالفاعلية السياسية هي عمل ديني يتطلب أعمال الفكـــر والهيبة والكمال. لذلك تزايد الاحترام الرسمي والشعبي للملك فيصـــل فـي الوطن العربي وهو احترام قائم على التغييرات الملحوظة التي أحدثها الملـك فيصل داخل المملكة ولإدارته الممتازة للأراضي المقدسة وســمعته كعـدو للدولة الصهيونية. ولقد أسهمت وتيرة كثرة العائدات المالية المتسارعة فـي جعل الملك فيصل يخطو بحذر لكن بثبات لإحلال التكنولوجيا الغربية كمـا أنه تمكن على الدوام من أن يوازن بين طلبات زملائه المتشـربين بالثقافـة الغربية الملحة باتجاه المضي بخطى أسرع نحو التحديث والإلحاح الشـديد لعلماء الدين الذين يدعون إلى عدم المضي إطلاقا.

لقد اختار الملك فيصل الوسطية ليس فقط بـــروح التســوية لتهدئـــة هاتين القوتين لكن لأنه يعتقد بجدية تامة أن التوجه الإسلامي الصحيح سوف يمتص التأثيرات العكسية للتحديث.

في ظل حكم الملك فيصل تم تدشين برنامج تعليمي مكثف. وازدادت مصروفات التعليم بمستوى سنوي يقارب 10% من الميزانية. وأقيمت مراكز التعليم المهني ومعاهد التعليم العالي إضافة إلى الكثـــير مـــن المـــدارس الإعدادية والثانوية التي كانت تقام سنويا. كما أن الحاجة للعنصر النســـائي والتدريب المتزايد لهن أدى إلى إنشاء الرئاسة العامة لتعليم البنات والتوســـع في فتح مدارس للبنات. وقد وضعت هذه المدارس تحـــت الرقابـــة الدينيـــة لتهدئة العديدين بمن فيهم "أعضاء في الأسرة المالكة" الذين يعارضون تعليـم البنات. وتضاعفت المراكز الصحية أيضا وهي مراكز تعد من بين أفضـــل المراكز الصحية في العالم.

الأوضاع الإقليمية داخل شبه الجزيرة العربية باستثناء اليمن كـــانت مضطربة ومشحونة بصفة أساسية بالنزاعات الحدودية. وقد أحـــدث الملـــك فيصل تقدما ملحوظا لكن بموته ورثت الســـعودية العديـــد مـــن النزاعـــات الحدودية التي لم تسو.

في سنة 1965م توصلت الســـعودية والأردن لقـــرار نـــهائي بشـــأن الحدود. كما توصلت السعودية أيضا إلى اتفاق تم بموجبه تعيين الحدود بينها وبين قطر. كما حددت اتفاقية الجرف القاري مع إيران فـــي أكتوبـــر 1968م الحقوق المنفصلة للسعودية وإيران في الخليج العربي كما توصلت الدولتـــان إلى اتفاق يقضي بعدم تشجيع التدخل الأجنبي في الخليج. ولقد رحب الملـــك فيصل باتزان ملحوظ بالحكومة الجديدة التي تشكلت في يوليـــو 1970م فـــي عمان برئاسة قابوس ابن السلطان المخلوع لكنه شدد من الإجراءات الأمنيـــة في المنطقة. وبالنسبة لدولة الإمارات العربية المتحدة التي تشكلت في ســـنة

1971م فإنها لم تلق أي اعتراف رسمي إلا بعد أن تم تسوية النزاع القديم حول واحة البريمي.

المشكلة الكبرى التي ظلت تواجه المملكة العربية السعودية داخل شبه الجزيرة العربية هي مشكلة تسوية الأزمة اليمنية. ومع أن الملك فيصل والرئيس عبد الناصر توصلا في جدة في شهر أغسطس من عام 1965م إلى اتفاق يقضي بوقف فوري لإطلاق النار في اليمن ووقف المساعدات السعودية للحكم الملكي باليمن وإجلاء القوات المصرية وعقد اجتماع في حرض باليمن برعاية سعودية مصريه للممثلين اليمنيين من الأطراف المتصارعة في عام 1965م في مدينة حرض اليمنية،إلا أن هذا الاتفاق وهذا المؤتمر لم يحرك حالة الجمود في الموقف واستأنف المتحاربون الاعتداءات بعد وعد مصر بسحب قواتها. ونتيجة لزعم الموالين للملكية في اليمن بإحراز انتصارات واسعة، أعلن المصريون أنهم لن يسحبوا قواتهم المتبقية، وأنهم ساخطون على ما يعتقدونه تدخلا متكررا للسعودية، وقامت الطائرات المصرية بقصف المنشآت السعودية في بعض المدن في جنوب السعودية. كان رد الفعل السعودي هو إغلاق مصرفين مصريين وهو الإجراء الذي واجهته مصر بالحجز على كل الأسهم العقارية السعودية في مصر.

وتفاقمت المشكلة بين المملكة ومصر وقام الملك سعود والذي كان يقيم في ذلك الوقت في مصر بإعطاء منحة شخصية مقدارها مليون دولار أمريكي للجمهورية العربية اليمنية "يمن صنعاء" وأذاع بيانات من عاصمتها ومن القاهرة يقرر فيها عزمه على الرجوع للحكم "لإنقاذ شعب وأرض المملكة العربية السعودية". ووقعت في المملكة سلسلة من الهجمات الإرهابية بالقنابل ضد مقار العائلة المالكة والأفراد الأمريكيين والبريطانيين وتمكنت السلطات الأمنية من اعتقال مجموعة من ضمنها 17 يمنيا من الذين قاموا بهذه التفجيرات . وقد أدين هؤلاء المتهمون وأعدموا بقطع رؤوسهم على الملأ بما يتماشى مع الشريعة الإسلامية. وظلت النزاعات المصرية

السعودية حول المنطقة دون حل حتى انعقاد مؤتمر الخرطوم في أغسطس 1967م. فقد جعلت كارثة حرب يونيو 1967م بين إسرائيل ومعظم الدول العربية النزاعات بين الدول العربية تأخذ موقعا من الدرجة الثانية موازنة بما اسماه العرب "التهديد الخارجي" من إسرائيل. ولقد أسهمت كارثة حرب يونيو ومؤتمرات القمة العربية التي أعقبتها في استمرار نفوذ الملك فيصل وزيادته كما أصبح موقعه السياسي والاقتصادي قوي بفضل العائدات البترولية الضخمة والتي يستطيع بها أن يوفي بالتزاماته بصورة جيدة وذلك بالإضافة إلى سمعته التي لا تقبل الشك كمسلم ورع وتقي. واتخذت دعوات الملك فيصل المؤيدة للإسلام والتي كانت غامضة في السنتين الأوليتين من حكمه موقفا قويا بعد حرب يونيو 1967م خاصة عندما تعرضت دولة إسلامية وهي الأردن إلى تهديد مباشر لوجودها من نفس هذه القوى "الكافرة" إسرائيل التي احتلت القدس وهي المدينة المقدسة الثالثة في الإسلام.

ففي مؤتمر الخرطوم وافقت السعودية وليبيا والكويت على تقديم منحة مالية تعادل 378 مليون دولار لتوزيعها على البلدان التي عانت من حرب 1967م. وقد كانت المساهمة السعودية حوالي 140 مليون دولار. لم يكن القصد من وراء هذه المنحة تسهيل الوضع المالي المزري فقط "لمصر والأردن" لكن أيضا لتعزيز قوتهما التفاوضية السياسية. لم تستطع مصر بعد ذلك الاستمرار في التزاماتها المكلفة في حرب اليمن واتفق الرئيس عبد الناصر والملك فيصل على حل وسط اقترحه السودان يقضي بانسحاب القوات غير اليمنية وعدم التدخل في شئون اليمن الداخلية. وانتهى مؤتمر الخرطوم دون أن يتطرق المؤتمرين لموضوع القيام بهجوم عسكري مضاد على إسرائيل لاستعادة الأراضي التي احتلتها إسرائيل في حرب حزيران يونيو لكن المؤتمرون وافقوا على عدم الاعتراف أو الصلح أو التفاوض مع إسرائيل كما وافقوا على مواصلة العمل من أجل الحقوق الفلسطينية.

ولقد أسهم حريق المسجد الأقصى في القدس في 21 أغسطس 1969م بتعجيل عقد مؤتمر القمة الإسلامي الذي انعقد بالرباط بالمغرب في سبتمبر 1969م. وقد وافق الممثلون على تكثيف الجهود لتأكيد سرعة انسحاب القوات الإسرائيلية من الأراضي المحتلة والسعي لسلام عادل مشرف. ولم تكن هناك أي مقترحات محددة لكن كان له تأثير إيجابي مفيد من الناحية النفسية على المشاركين فيه والذين عبروا عن قلقهم عن تزايد تدهور الأوضاع مع إسرائيل.

وتمشيا مع تنامي الزيادة المطردة لعائدات النفط السعودية الناجمة عن الزيادة في الإنتاج البالغة 25% في سنة 1971م والمكاسب العالية التي تحققت نتيجة لرفع الأسعار بواسطة أوبك في اجتماع طهران فبراير 1971م، وما تردد في اجتماع أوبك في بيروت في مارس 1972م بشأن مناقشة التوطين التدريجي لشركات النفط الأجنبية وتحويل ملكيتها لتصبح شركات وطنية ، تعاظم نفوذ الملك فيصل مما جعله يهدد في يوليو 1973م بتقليل الشحنات النفطية إذا لم تعامل الولايات المتحدة مصر كما تعامل إسرائيل. لقد اصبح هذا التهديد مفهوما خلال حرب أكتوبر 1973م بين إسرائيل ودولتين عربيتين هم مصر وسوريا حيث تبنت منظمة الدول العربية المصدرة للبترول (الأوابك) رفعا عاما لأسعار النفط ومقاطعة نفطية للدول المستهلكة الرئيسة والذين هم إما من مناصري إسرائيل أو من مناصري حلفاء إسرائيل. لقد كان هذا الحصار احتجاجا سياسيا يهدف إلى ضمان الانسحاب الإسرائيلي من الأراضي العربية المحتلة والاعتراف بحقوق الشعب الفلسطيني.

في المؤتمر العربي الذي عقد بالجزائر في نوفمبر 1973م وافقت المملكة العربية السعودية مع كل المشاركين ما عدا ممثل الأردن على الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية كممثل شرعي وحيد للشعب الفلسطيني. ومع أن الملك حسين ملك الأردن رفض المشاركة في هذا

المؤتمر إلا أن الملك فيصل شجعه على المشاركة في المؤتمر التالي الـــذي عقد في الرباط عام 1974م. وفي هذا المؤتمر وافق الملـــك حســين علـــى مضض على المقترحات التي تقول أن منظمة التحرير الفلسطينية يجـــب أن تكون هي المفاوضة حول تأسيس الكيان الفلسطيني في الأراضي التي احتلها إسرائيل مؤخرا "حديثا". وفي مقابل هذا الاعتراف الأردني وعدت المملكـــة بإعطاء الملك حسين مساعدة نقدية قيمتها 300 مليون دولار في كـــل ســنة ولمدة أربع سنوات قادمة.

إن انغماس الملك فيصل في الصراع العربي – الإسرائيلي وتـــهور الأنظمة الثورية بالقرب من التراب السعودي جعلته يبطئ من برامج التنميـة المحلية. كما أن تدهور صحة الملك فيصل وعمله لساعات طويلة وتقدمه في السن أصبحت تؤثر على تقويمه للأولويـــات الوطنيـــة. إن ملكـــة التميـــيز الشخصية الموجودة لديه لم تخذله أبدا لأن أولئك الذين اختارهم – فهد ، عبد الله ، سلطان والشيخ أحمد زكي يماني – نفذوا العديد من خططه بعد اغتياله في 25 مارس 1975م. لقد كانت ظروف موته ظروف قدريـــة. لقـــد مـــات بإطلاق النار عليه من ابن أخيه وهو عضو من الأسرة المالكة والتي كـــافح الملك فيصل من أجلها ولتأمينها. لقد حدث اغتياله في المجلس الـــذي كـــان الملك فيصل يصر على الاحتفاظ به.

بعد اغتيال الملك فيصل بويع ولي العهد الأمير خالد بتولي العـــرش في الحال وتلقى البيعة من الأسرة المالكة وقادة القبائل. واختير الأمير فـــهد وزير الداخلية وليا للعهد كما هو متوقع وتولى منصبه بعد ذلك مباشرة. ولقد أثبت الملك خالد أنه الملك المثالي اللازم لفترة توليه الحرجـــة مـــن تـــاريخ السعودية.

في البداية كان المراقبون من الخارج وبعض الرسميين الســـعوديين يشككون في قدرة الملك خالد الخجول الهادي على مواصلة عملية التحديـــث التي بدأها أخوه غير الشقيق الملك فيصل. ولقد بدأ الملك خالد وهو يفتقد كليا

لحنكة الملك السابق وذلك لأنه تعلم بداخل القصر فقط وكان تخصصه الرئيس هو دراسة القرآن الكريم . وكان الملك خالد يتحدث الإنجليزية بتلعثم وتردد. وقد كان قبل توليه العرش يحب الاستجمام والاعتزال بالصحراء للتعبد والصيد. باستثناء رحلات الصيد التي كان يقوم بها الملك خالد للهند وأفريقيا كانت رحلاته الخارجية مقصورة على الزيارات الحكومية أو الرحلات العلاجية للولايات المتحدة الأمريكية التي استلزمتها ظروفه الصحية السيئة.

وعلى الرغم من أن الملك خالد يفتقر إلى منزلة والده المؤثرة وشخصيته الفذة إلا أنه من نفس قالبه.

وعندما يكون مسترخيا بالصحراء في رحلات الصيد مع القبائل فإن بساطته وهيبته وورعه الفطري تؤكد وتدعم أهليته لحكم دولة مؤسسة على الائتلاف السعودي – الوهابي.

إن إعداد خالد لحكم دولة حديثة تضمنت مرافقته للملك فيصل في المهمات الخارجية وتمثيل المملكة العربية السعودية في الأمم المتحدة. ولقد كان أهدأ شخصية وأكثرها تأثيرا داخل العائلة المالكة. كما كان معروفا أنه لام الأسرة المالكة لدعمها الملك فيصل لإخراج الملك سعود في سنة 1964م. كما أن القوة الهادئة والتماسك الذي كان يبديه خلال الأزمات الدقيقة والمحتملة الخطورة في كثير من الأحيان التي مرت بها المملكة في أيام حكمة قد جسدت فترة حكمه. ورغم أنه كان يحكم بهدوء إلا أنه كان يحكم بفعالية وبصورة ملحوظة أكثر من صورة الحاكم الصوري التي كان يتوقع الكثيرون أن يكونها. ولقد وصف أحد الخبراء المطلعين على شؤون المملكة بأن الملك خالد "عامل هام التكوين وفق بين التقدميين والرجعيين".

الأسلوب القيادي للملك خالد يختلف بصورة ملحوظة عن الملك فيصل. فقد كان الملك خالد أكثر انفتاحا من منظور إعلام الصحافة عن الأساس المنطقي لقرارات السياسة الخارجية. ورغم أنه استخدم ذات الطاقم

من صناع القرار في عهد الملك فيصل إلا أنه سمح لهم بحرية أكبر في اختيار وصنع القرار من خلال وزاراتهم . وفي مجال الشؤون الداخلية سمح للحكام الإداريين "أمراء المناطق" باستقلالية كبرى ملحوظة بل خولهم استخدام الاعتمادات المالية وفقا لما يرونه مناسبا. وفوق كل ذلك كان يعطي قيمة لرأي الجماعة وأسلوب عمل الفريق لحل المشكلات.

الانقلاب الدبلوماسي الأول للملك الجديد كان عقده لاتفاقية ترسيم الحدود في إبريل 1975م الخاصة بواحة البريمي وهي الواحة التي تلتقي فيها حدود أبو ظبي وعمان والمملكة العربية السعودية. وبذلك وضع حدا للمزاعم والمزاعم المضادة حول هذه المنطقة الحدودية التي تسببت في تفاقم العلاقات بين هذه الدول الثلاث لسنوات عديدة، وبرهن من خلال إشرافه على المفاوضات الختامية الناجحة ورعايته لها على منزلته الرفيعة كرجل دولة ونال ثقة المراقبين المطلعين على الشؤون السياسية لشبه الجزيرة العربية.

بعد عام من هذه الاتفاقية وفي إبريل 1976م قام الملك خالد بزيارات رسمية لكل دول الخليج على أمل تقوية العلاقات بجيرانه في شبه الجزيرة العربية. هذه الزيارات وضعت اللبنات الأولى لمجلس التعاون الخليجي . وقد زامن زيارة الملك خالد لهذه الدول دعوة إيرانية بإنشاء ترتيبات أمنية جماعية لكل دول الخليج. هذه المقترحات رغم أنها لم ترفض سريعا إلا أنها قوبلت ببرود من حكومة المملكة العربية السعودية، وذلك تحوطا من نوايا السيطرة الإيرانية والتي تشابه النوايا العراقية.

وكانت أشد المناطق حساسية في علاقات المملكة بجيرانها أثناء حكم الملك خالد هي علاقتها بالجمهورية العربية اليمنية "صنعاء" وجمهورية اليمن الشعبية الديموقراطية "عدن". ورغم قيام علاقات سعودية مع صنعاء بعد انتهاء حربها الأهلية في سنة 1967م والمساعدات السعودية الضخمة إلا أن العلاقات ظلت متوترة واتسمت بعدم الثقة المتبادلة. فقد شعرت حكومة صنعاء أن المملكة العربية السعودية تود الاحتفاظ بها فقط كدويلة محايدة

ملائمة تفصل حدود المملكة الجنوبية عن جمهورية يمن "عدن" التي تدور في فلك الاتحاد السوفيتي وتتزود بالأسلحة السوفيتية. وتعتقد الرياض أن صنعاء تلعب على النقيضين لأنها تقبل المساعدات الروسية والسعودية. وقد كانت هناك محاولات عديدة من السعودية للتقارب مع حكومة عدن إلا أن استمرار هجمات القوات المسلحة لحكومة عدن المتقطعة خلال السبعينات ضد النقاط السعودية قرب حدودها ومواصلة تدريب العرب والإرهابيين الآخرين على ترابها حال دون تحسين العلاقات معها.

في أواخر سنة 1975م عين الملك خالد ولي العهد الأمير فهد نائبا لرئيس الوزراء كما اختار الأمير عبدالله "الأخ الآخر غير الشقيق وقائد الحرس الوطني السعودي ليكون نائبا ثانيا لرئيس الوزراء بالإضافة إلى قيادته للحرس الوطني. وبذلك أصبح ولي العهد الأمير فهد الذي كان يشارك أصلا في القرارات الرئيسة الناطق الرئيس للمملكة والمهندس الرئيس لتحديث السعودية، وشؤونها الخارجية ومعد سياستها النفطية. في سنة 1976م كان الهم الرئيسي لحكومة المملكة هو الحرب الأهلية في لبنان وذلك بعد مضي عام على اندلاعها. ومع أن ولي العهد الأمير فهد متمسك بقوة بالموقف السعودي الذي يعارض التدخل المسلح وغير المسلح في الشؤون اللبنانية الداخلية إلا أنه كان مساعدا في تكوين قوات حفظ السلام التابعة لجامعة الدول العربية. ورغم اعتماد الملك خالد المتزايد على ولي العهد الأمير فهد إلا أن الإجهاد المكتبي أحدث أثرا قاسيا على الملك خالد مجبرا إياه على الرجوع للولايات المتحدة لإجراء جراحة قلب مفتوح ناجحة في كليفلاند بولاية أوهايو.

علاقات الولايات المتحدة والسعودية استمرت في حرارتها في عهد الملك خالد على الرغم من أن السعودية ظلت محبطة من التصلب الأمريكي الملحوظ بشأن تسوية المشكلة الفلسطينية. في يناير 1978م في اجتماعه مع الرئيس جيمي كارتر بالرياض أكد الملك أن السلام في المنطقة سوف يتحقق

فقط بالانسحاب الإسرائيلي الكامل من الأراضي المحتلة وأيضا بتقرير المصير وحقوق إعادة توطين الفلسطينيين.

الموضوع الثاني الذي نوقش في الرياض خلال هذه الاجتماعات كان الاختراقات السوفيتية والنفوذ المتزايد عن طريق بيع الأسلحة ومعاهدات الصداقة في اليمنين. بعد خمسة شهور من اجتماع الرياض طلب الملك خالد من كارتر أن يبيعه طائرات قتالة متطورة لمساعدة السعودية في كبح العدوان الشيوعي في المنطقة. وصلت [illegible] شحنة من الطائرات أف-15 بموجب هذه الاتفاقية التي صادق عليها كارتر وكان عددها 60 طائرة إلى المملكة في يناير 1982م . إن بيع وتسليم طائرات أف-15 والموافقة اللاحقة من الولايات المتحدة بإرسال معدات متطورة لتعزيز قدرات الطائرات الحربية والمفاوضات التي نتجت عنها الموافقة على بيع طائرات الأواكس وهي طائرات إنذار مبكر أكدت على إصرار الملك خالد على أن السعودية يجب أن تعامل كشريك كامل في كل المجالات التي تهم البلدين.

في سنة 1979م بدأت السعودية تعيد النظر في حساباتها لمعظم الأفكار الخاصة باستقرارها وعلاقاتها بجيرانها وحلفائها. ففي مارس عام 1979م ونتيجة لاتفاقية السلام المصرية الإسرائيلية قطع الملك خالد علاقاته بمصر وقاد عملية البحث عن تطبيق عقوبات اقتصادية ضدها مما أسهم في زيادة التوتر والنقد اللاذع المتبادل بينهما وتردي العلاقات المصرية السعودية حتى اغتيال أنور السادات في أكتوبر 1981م وقد تدهورت علاقات السعودية بصورة ملحوظة عندما وصف السادات دول الخليج بأنها "أقزام" و"كيانات ضعيفة".

بعد فترة قصيرة من انقضاء مؤتمر القمة الإسلامي الذي انعقد في السعودية في يناير عام 1981أعلنت القيادة السعودية تكوين مجلس دول التعاون الخليجي وهو المشروع الذي كان يفضله الملك خالد منذ سنوات بعيدة. لقد قام كل من الملك خالد وولي عهده الأمير فهد بحملات نشطة

خلال السنوات الماضية لقيام مثل هذه المنظمة. ولقد كانت النظرة لمجلس التعاون لدول الخليج العربية تنبثق من كون بلدان مجلس التعاون الست هي من بلدان شبه الجزيرة هي بلدان متجاورة لديها مؤسسات سياسية وظروف اجتماعية وموارد اقتصادية متشابهة، وهي: السعودية، الكويت، قطر، البحرين، الإمارات العربية المتحدة وسلطنة عمان. إن هدف مجلس التعاون كما أعلن رسميا في أول قمة في مايو 1981م هو تنسيق وتوحيد السياسات الاقتصادية والصناعية والدفاعية.

في أواخر السبعينات كانت السعودية محاطة من جميع جهاتها بمشكلات عالمية بعضها ذو منشأ خارجي مصحوبة بما يتصوره السعوديون كابوسا إقليميا رئيسيا. كانت القضية الفلسطينية إرثا ناضل من أجلها كل الملوك السعوديين. بالنسبة لعهد الملك خالد أضيفت لقضية فلسطين الحرب الأهلية في لبنان. وقامت الثورة الإيرانية التي أطاحت بشرطي المنطقة شاه إيران في يناير 1979م. واتضح من سلوك الخميني الذي خلف الشاه في حكم إيران وحكومته أن الحكومة الإيرانية لن تأخذ على عاتقها أو تلبس العباءة على أقل تقدير حسب الطريقة التي تأملها السعودية. كما أن احتجاز الإيرانيين لأعضاء السفارة الأمريكية في نوفمبر 1979م أثار مخاوف السعوديين لكنهم لزموا جانب الصمت. وبعد ذلك في ديسمبر بدأ الغزو السوفيتي لأفغانستان. في سبتمبر 1980م هاجم العراق إيران حول السيادة على ممر شط العرب وبهذا بدأت الحرب التي انشغل بها كل من العراق وإيران مما وفر الفرصة الفريدة لتشكيل تحالف مجلس التعاون مستثنيا كل من العراق وإيران. وبغض النظر عن النتائج فإن هذا التحالف جعل دول الخليج المتحالفة عرضة للتأثير كما كانت في السابق ولم يعطها إلا أثرا ضئيلا من الحماية. ومع أن استبعاد كل من العراق وإيران أمكن تبريره بانشغالهما بالحرب إلا أن دولتي اليمن الشمالية والجنوبية المجاورتين لدول الخليج سجلتا غضبها على استثنائهما من دول مجلس التعاون الخليجي.

ظلت دولتي اليمن (قبل توحدهما في دولة واحدة) في كل الأحوال تشكلان صداعا للسعودية خاصة عندما تبين أن السوفيت يعززون تواجدهم في كليهما خاصة وإن غزو واحتلال السوفيت لأفغانستان إضافة للنشاط السوفيتي في القرن الأفريقي كانت تفسره السعودية بأن هذه السياسة السوفيتية تستهدف الالتفاف عليها.

في ظل تلك الظروف الإقليمية والدولية أصبح ولي العهد الأمير فهد أكثر نشاطا وفي نفس الوقت بدأت صحة الملك خالد تتدهور بسرعة كبيرة. هذه الرؤية والتجربة وضعت ولي العهد الأمير فهد في موقع مكنه من إثراء خبراته ومهاراته جعلته عندما مات الملك خالد بعد مرض قصير في يونيو 1982م، وتولى ولي العهد الأمر وتوج ملكا أن يبدأ فترة حكمه بمعالجة السلسلة المتلاحقة من المشكلات المحلية والعالمية التي تواجه المملكة والعمل على حلها.

قطـــــر

لقد قلل انسحاب آل خليفة إلى البحرين وتركهم لزباره من نفوذهم في قطر، وذلك على الرغم من أن آل خليفة رجعوا لفترة قصيرة في القرن التاسع عشر وكانوا دائما على اتصال وثيق بقطر. ولقد كان آل ثاني هم أهم القبائل في قطر قبل وصول آل خليفة . وآل ثاني ينحدرون من ثاني بن محمد بن ثامر بن علي من بني تميم، وهي قبيلة عدنانية كبيرة. وتقول الروايات إن الجدود الأوائل لآل ثاني هاجروا من نجد واستوطنوا بصورة رئيسية في شرق قطر في واحة يبرين وكان ذلك في أواخر القرن السابع عشر، وانتقلوا بعد ذلك إلى الدوحة، العاصمة الحالية لقطر. ومن الواضح أن آل ثاني كانوا خاضعين لآل خليفة، حتى بدأ محمد بن ثاني شيخ الدوحة في السعي للاستقلال . ولقد كان آل ثاني أقل قوة أمام قوة آل خليفة حتى تعاظم النفوذ العثماني في شرق شبه الجزيرة. فقد كان العثمانيون غير حريصين على أن يحكموا بلدان الخليج حكما مباشرا لإدراكهم أن حكم هذه

البلدان لن يثمر لهم شيئا، لكنهم أرادوا تكوين سلطة اسمية وذلك بسبب الموقع العسكري الاستراتيجي للدول الواقعة على طول ساحل الخليج.

وعندما عين العثمانيون الشيخ محمد بن ثاني حاكما محليا برتبة قائم مقام في سنة 1872م أصبح آل ثاني مستقلين عن آل خليفة. وبعد أن توفي الشيخ محمد بن ثاني خلفه ابنه قاسم (1876–1913م) ، الذي كانت له رؤية استثنائية (خاصة) إلى حد ما عن مستقبل قطر. كما أصبح الشيخ قاسم في ذلك الوقت من القيادات المتنفذة في شبه الجزيرة. ولقد حاول عبدالله بن قاسم الذي خلف والده (1913–1949م)، الاستمرار في سياسات والده في شبه الجزيرة ، بما فيها البقاء تحت الوصاية العثمانية، إلا أنه في سنة 1931م وقع معاهدة مع بريطانيا كانت متطابقة كليا مع تلك المعاهدات التي طبقت مع الكويت والبحرين.

القواسم وبني ياس

البلدان الساحلية السبعة التي تكونت منها دولة الإمارات العربية المتحدة في سنة 1971م، كان معظم أجزائها ذات تاريخ منفصل حتى اكتشاف النفط . ومن المنظور التاريخي ، فإن حكام البلدان الخمس الأصغر، وهي التي لا تنتج النفط أو أن النفط الذي تنتجه أقل من نفط أبوظبي أو دبي، كانوا من ذوي النفوذ الكبير في القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر. وكانت نشاطاتهم في القرصنة المحرض الرئيس للبريطانيين للسيطرة أو على الأقل لتهدئة هذه النشاطات في الخليج عن طريق عقد معاهدات مع زعماء هذه البلدان والبلدان الأخرى.

وقد حكم القواسم رأس الخيمة والشارقة . فمنذ عدة قرون استقر القواسم على الساحل الإيراني للخليج والمناطق الساحلية على بعد عدة كيلومترات باتجاه الشمال من شبه جزيرة موسندام ، كسادة إقطاعيين لمنطقة جغرافية تمتد أفقيا عبر الخليج. وبسب قرب القواسم الجغرافي لعمان

والمدن العمانية على الساحل الإيراني، فإن تاريخهم كان متداخلا. وقد برز القواسم كقوة معروفة جدا بسبب تجارتهم ثم بسبب نشاط القرصنة الذي بدأوا يمارسونه ، مما دعا البريطانيين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر إلى الإشارة دون تمييز إلى جميع القراصنة غير الأوروبيين بالقواسم، وكانوا يسمونهم جواسم – وهو الاشتقاق غير الصحيح من سماعهم لعرب الخليج ينطقون الحرف العربي القاف بالجيم المخففة .

ولقد بدأ منذ الوهلة الأولى أن للقواسم مصالح أخرى غير التجارة، خاصة عندما قام شيخ رأس الخيمة القاسمي بمساعدة إمام عمان، سلطان بن سيف الثاني، باحتلال البحرين في سنة 1720م. فبعد عدة سنوات قليلة أسس القواسم ميناءا آل بوسعيد في جزيرة قشم. ونظرا لكون رئاسة شركة الهند الشرقية كانت متواجدة في بندر عباس على الأرض الرئيسية خلف القواسم، فقد غضب البريطانيون نتيجة لفقدان العائدات الذي سببه مرسى السفن في ميناء آل بوسعيد بحكم قرب موقعه . وعليه فقد قام وكلاء السفن بغزوة بحرية ضد ميناء آل بوسعيد لضمان الحصول على التعويض من القواسم.

وعلى أي حال، لم يبق القواسم فترة طويلة في موقف دفاعي . فإنه وبسبب الشكوك التي سادت في إيران خلال معظم القرن الثامن عشر، وما نتج عنها من ارتباكات للحكومة المركزية وعدم القدرة على منع الشاه الإيراني من أن يستغل حكام الأقاليم من وقت لآخر ، لجأ الحكام المحليون الإيرانيون للبحث عن طرق أخرى لحماية مصالحهم الخاصة. ومن هذا المنطلق طلب الملا علي شاه، الأدميرال الإيراني وحاكم هرمز، العون من القواسم لمساعدته في الدفاع عن حكمه ضد المطالب المتعددة للأتاوات التي فرضها مرشحو العرش الإيراني. ولكون المصاهرة، هي الاستجابة الخليجية التقليدية للمشكلات السياسية فقد تصاهرت أسرتي الملا علي شاه وشيخ القواسم، راشد بن مطر بن قاسم. ولقد نال القواسم منزلة رفيعة وسط العرب نتيجة للأرباح المتعددة التي جنوها من هذا الإتلاف. والأهم من ذلك، أنه

عندما أزعج القواسم البريطانيين في بندر عباس، لم يستطع الإيرانيون حماية المصالح البريطانية.

اطراد النفوذ القواسمي لم يهدد فقط البريطانيين، بل أيضا بعض القوى البحرية العربية، خصوصا العمانيين وعتوب الكويت والبحرين. لذا فقد تورط العمانيون والقواسم في حرب طويلة الأمد خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر، ولم تظهر الهدنة الوحيدة بينهم إلا في سنة 1773م، عندما تبين احتمال تهديد شاه إيران للدول المطلة على الساحل العربي. وبالنسبة للنزاع بين القواسم والعتوب فقد تم تقريبا بمحض الصدفة. ففي إطار القوة التي يتمتع بها القواسم حاولوا في سنة 1782م أن يقوموا بوساطة دبلوماسية بين آل خليفة وشيخ بوشهر ، الذي أظهر دعاويه ومزاعمه في البحرين نيابة عن إيران. وفي أثناء تلك الفترة ، قامت سفينة للعتوب بالقبض على أحد قوارب القواسم المبحرة وقتلت طاقمه الذين هم من القواسم مما دفع القواسم للإستنجاد بالعرب المقيمين على الساحل الإيراني ومن ثم القيام بمهاجمة العتوب المستوطنين في زبارة وذلك للثأر منهم .

بين سنوات 1797م و1804م حدثت بين القواسم والبريطانيين ثلاثة حوادث في سبع سنوات ، وقد كان دافع القواسم على الدوام إقلاق التجارة العمانية. ولقد تغيرت على ارض الواقع أوضاع الساحل العربي بسبب التوسع العسكري والديني لحركة الوهابيين القادمين في سنة 1800م من وسط شبه الجزيرة العربية إلى الساحل الشرقي منها. ونتيجة لكون غالبية عرب سواحل الخليج سنيين، بإستثناء العمانيين ، فقد تعاطف بعض السنيين من سكان الخليج مع الحركة الوهابية . وقد تمكن الوهابيون في أوج مجدهم من السيطرة على كل ساحل الخليج العربي من البصرة حتى الدبه . ونظرا لكون السيطرة على إقليم ما بقوة الدافع الديني شئ وتحويل معتقدات سكان ذلك الإقليم شئ آخر ومختلف كليا، فإ ن قطر هي البلد الوحيد من بلدان ساحل الخليج الذي لازال للوهابية ظل فيه.أما بالنسبة للقواسم في ذلك

الوقت، فقد قابلوا الوهابية بإيجابية أكثر من بقية دول الخليج الأخرى. وهذا على أقل تقدير ناتج جزئيا من منافسة القواسم للعمانيين على السيادة التجارية. وحيث إن العمانيين ينتسبون لفرقة الأباضية الإسلامية، وهي فرقة تعد في رأي الوهابيين المتشددين غير مسلمة ، فقد كان القواسم يعتقدون أن اتحادهم مع الوهابيين سوف يمكنهم من الحصول على الغنائم التي قد ينالونها إذا سقطت عمان في أيدي الوهابيين. ولأن عمان كانت متورطة في حرب أهلية، فقد تمكن القواسم من الحصول على مساعدة أحد الأجنحة العمانية المتحاربة وهم الجعفريون المنحدرون من الجذور العدنانية . وقد قدم الجعفريون المساعدة للقواسم ليس لأنهم كانوا يرغبون في أن يستولي الوهابيون على عمان بل كل ما كانوا يأملون فيه هو دعم القواسم لهم في قضيتهم ضد عدوهم في الداخل.

وتعاون القواسم مع الحركة الوهابية شجعهم على القرصنة الشاملة ضد البريطانيين مما عجل برغبة البريطانيين في إتمام معاهدات ثابتة على طول الساحل كلما كان ذلك ممكنا. ولقد عزى العديد من الكتاب تزايد نشاط قرصنة القواسم ليس فقط للحماس الذي بثته الحركة الوهابية بل أيضا نتيجة للتدخل البريطاني في الحرب طويلة الأمد بين القواسم والعمانيين، وعلى وجه الخصوص للدعم البريطاني للعمانيين ، خاصة إذا علمنا أن الهجمات الشاملة على السفن البريطانية لم تبدأ إلا بعد 1808م، وهي السنة التي بدأت الحرب فيها تتطلب بعض الدعم. والحماية البريطانية لعمان لم تكن مستحقة على بريطانيا أو ملزمة لها بدواعي ترتيبات معاهدة معينة. بل الأمر كان ينبع من الاهتمام البريطاني الرئيس بضرورة الحيلولة بين القواسم كشريحة وهابية وبين احتكار تجارة الخليج. وفي المقابل فإن القواسم شعروا بأنهم ورغم التزامهم بالمعاهدة التي أبرموها مع البريطانيين عام 1806م وهي المعاهدة التي بموجبها التزم القواسم بوجوب احترام علم شركة الهند الشرقية في مقابل أن لا يحال بين القواسم وجهودهم في

محاولتهم لتعويض جزء من تجارتهم الهندية ، التي شعروا أن العمانيين استولوا عليها.

ولقد عززت الحوادث المتكررة ضد البريطانيين في سنة 1808م ضرورة القيام بأحداث تغيير جوهري في سياسة المبدأ السائد آنذاك المتمثل في عدم التدخل في الشؤون الداخلية لعرب الخليج . فاللورد مونتو الحاكم العام للهند، والعميد بحري وليام دوري، قائد قاعدة الهند الشرقية البحرية بالإنابة، قررا أن الهجمات التي يقوم بها القواسم تهدد استقلال عمان ، وهذا الاستقلال يعتبر أمرا مهما وحيويا للمصالح البريطانية. كما أن إظهار الدعم البريطاني لعمان أمر مهم أيضا لاحتواء السيد سعيد ، شيخ عمان الذي أظهر في السابق تعاطفا مع الفرنسيين، خاصة أن البريطانيين كانوا لا زالوا يعانون من الصدمة التي سببها لهم غزو نابليون لمصر في سنة 1797م و1798م . وعليه ، فقد دمر البريطانيون رأس الخيمة في سنة 1809م كما دمروا أيضا بعض المواقع الصغيرة التي يحتلها القواسم في بعض الأماكن الأخرى . غير أن القواسم تمكنوا من تعويض بعض خسائرهم ثم قاموا بالمزيد من الهجمات على السفن البريطانية في سنة 1812م و 1813م. وقام السيد سعيد بهجمات على رأس الخيمة في سنة 1814/1812م بمساعدة من بني ياس ساكني أبو ظبي. واستمرت هجمات القواسم والهجمات البريطانية المضادة لها سجالا حتى قام البريطانيون بغزوة ماحقه لرأس الخيمة في سنة 1820م.

كان القواسم يسيطرون على خمس من البلدان السبع وهي : مشيخات عجمان وأم القوين والشارقة والفجيرة ورأس الخيمة . وفي كثير من المراحل التاريخية لتطور هذه البلدان كانت عجمان وأم القوين والشارقة والفجيرة تتبع مشيخة رأس الخيمة . أما البلدان الآخران وهما أبوظبي، ودبي، فقد أنشئتا بواسطة قبيلة بني ياس الرعوية سابقا . فأبوظبي التي أوجدت تقريبا في سنة 1761م، كانت مفضلة لدى بني ياس بسبب مياهها

العذبة وقرب مصايد اللؤلؤ فيها . ولقد أدرك بنو ياس بسرعة قيمة الحرف والمهن البحرية، مما جعل شيخ عشيرة آل أبو فلاح القوية ينقل مقره إلى مدينة أبوظبي . أما دبي فقد استوطنها بني ياس في أواخر القرن الثامن عشر ، وذلك بالرغم من أن الميناء كان مستخدما بواسطة العمانيين لقرون عديدة. وفي أول الأمر، وتحت سيادة أبو ظبي استقر في دبي آل أبو فلاسه فرع من بني ياس وأعلنت استقلالها في سنة 1834م وسرعان ما صارت منافسا قويا في مجال التجارة لفرع آل أبو فلاح المستوطنة حديثا في أبو ظبي . ونظرا لجدة مستوطنات بني ياس، فإن أهميتها لم تكن بارزة في الخليج حتى منتصف القرن التاسع عشر، حيث تحالفوا مع العمانيين ضد القواسم. وفي سنة 1820م كان بني ياس من ضمن الموقعين على المعاهدة العامة للسلام بين بريطانيا وبلدان الخليج أو ما كان يعرف بدول الساحل الأخضر. بعض المناطق التي وقع مشايخها على معاهدة 1820م غيرت أسماؤها أو تم دمجها في المناطق القوية الأخرى ، لكن الموقعين الأساسيين هم، مشايخ كل من أبو ظبي ودبي وعجمان وأم القوين وجورة القمرى *وخط وخلفه* .

ولقد كانت الفترة ما بين عام 1820م وعام 1852م من الفترات العاصفة بشكل متواصل لكل من البريطانيين والموقعين الآخرين على المعاهدة. فقد بدأت تبرز شهرة وأهمية أبو ظبي، ودبي ، الشارقة التي كانت في السابق تأتي في الترتيب بعد رأس الخيمة أصبحت أكثر غنى ، وبحلول 1820م ظهرت إلى الوجود كل من عجمان وأم القوين. وأنهى القواسم نشاطات القرصنة التي كانوا يمارسونها ، لكن جهودهم لبناء دولة غنية ومستقلة وقوية سحقها البريطانيون إلى الأبد.

وفي سنة 1853م تم إبرام اتفاقية السلام البحري الدائم بين كل من القواسم وبلدان بني ياس ، حيث ثبتت هذه الاتفاقية مكانة الأسر الحاكمة وأيضا وضع البلدان نفسها لأن الموقعين وافقوا على عدم مواجهة بعضهم

البعض على البحار المكشوفة ، كما أنه على أثر هذه الاتفاقية غير البريطانيون اسم الساحل من ساحل "القرصنة" إلى الساحل الأخضر. أما بالنسبة للحروب داخل القبيلة أو بين القبائل فقد استمرت في اشتعالها، لكن المواجهات كانت على البر أكثر من كونها في البحر. وعلى الرغم من استمرار هذه الحروب الداخلية أحجم البريطانيون عن التدخل في الشؤون الداخلية، والنتيجة غير المنطقية هي أن أصبحت هذه البلدان في وضعية الإقليم الذي لم تحتل أراضيه ، لكن الموت والدمار يسودان الحياة فيه .

ومع أن المعاهدات أكدت على وجود البلدان، إلا أن هذه المعاهدات لم تحدد الظروف التي يتعين أن تتواجد في ظلها هذه البلدان، مما جعل الكثير من مشكلاتها القبلية تستمر ولم يتم حل معظمها إلا في القرن العشرين

وقد وقعت بلدان الساحل الأخضر اتفاقية استثنائية تحدد بمقتضاها أن تكون بريطانيا الوسيط الدبلوماسي الأجنبي الوحيد الذي يتولى القيام بالوساطة في حل المشكلات ولإجراء الاتصالات الدبلوماسية الخاصة بهذه البلدان . ومع أن التاريخ الداخلي لهذه البلدان يعد عديم الأهمية ماعدا لأولئك الذين يعيشون هناك، فقد كان البريطانيون مسيطرين بشدة على الأحداث الداخلية.

عمان

لعمان تاريخ طويل موثق من العهود القديمة وتدل الوثائق على أن القبائل قد استوطنت دولة عمان وإقامة فيها إقامة دائمة منذ القرن الثاني الميلادي . وهذه القبائل ــ بخلاف قبائل الخليج العربي الأخرى ــ هي قبائل متباينة في معتقداتها الدينية وأصلها القبلي ونظرتها للعالم . ففي الوقت الذي كان العمانيون يمارسون فيه التجارة المكثفة، والقيام بغارات متكررة ضد بعض الدول المنافسة والقيام بتحالفات مع دول أخرى، فإنهم كانوا مهتمين بالانقسامات الداخلية الناجمة عن تباين التضاريس الجغرافية ، واختلاف الجذور القبلية، وتعدد معتقدات الفرق الدينية . ومع أن بعض دول الخليج

استطاعت التغلب على مثل هذه الفوارق عمليا وتطويقها تطويقا شاملا من خلال ايرادات النفط ، إلا أن المشكلات العمانية الداخلية – خصوصا تلك التي تكاثفت خلال القرن الثامن عشر – كانت دائما تشكل عاملا للانقسام.

ففي بداية القرن الثامن عشر تحول التنافس على خلافة الإمام ليكون مصدرا عنيفا للصراع لدرجة لم يقتصر فقط على تعزيز الانقسامات الموجودة أصلا في عمان بل ورط العديد من القبائل في مشيخات الساحل المجاورة . فالعلماء في عمان فضلوا انتخاب مهنا بن سلطان اليعربي، الذي تبين لهم أنه يحقق المتطلبات اللازمة لإمامة الأباضية ، بينما رغب قادة القبائل في انتخاب الابن الأصغر للإمام السابق.

ومع أن مهنا تم انتخابه في آخر الأمر ، إلا أن النزاع استمر وتطور مما أدى إلى المطالبة بإراقة دم مهنا . ونتيجة لهذا الصراع برز جناحان: الجناح الأول ويمثله الحناويون، وهو الاسم الذي يطلق على قبيلة بني حنة وأميرها خليفة بن مبارك الحناوي ، والجناح الثاني ويمثله الجعفريون ، وهو الاسم الذي يطلق على بني جعفر وخصوصا على أولئك الذين يقودهم محمد بن ناصر الجعفري .

وقد أيد ودعم الحناويون اختيار العلماء، في حين أيد ودعم الجعفريون اختيار قادة القبائل . ونظرا لكون عملية اختيار الإمام تعد من الأمور المهمة جدا بالنسبة للعمانيين، فإن قضية من يكون الإمام الشرعي هي المحفز الوحيد على وجود تلك الأوضاع المضطربة والنزاع المستمر لفترة طويلة.

والحناويون هم أهل الجنوب ، أي أنهم قحطانيون ، بينما الجعفريون ومؤيدهم ينحدرون من اصول عدنانية. ومع أن كلتا المجموعتين الحناوية والجعفرية أباضيون، إلا أن الحناويين منحدرون من قبائل الأباضية السلفية الذين يعدون أنفسهم حفظة للدين الصحيح. ولقد كانت عمان بلا إمام لفترات عديدة عندما فشلت التسوية بين المجموعتين.

في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، اختير للإمامة أحد أفراد عائلة البوسعيد ، وهو الجد الأعلى للسلطان قابوس سلطان عمان . وكان الإمام في عمان يشغل منصب الإمامة ومنصب الحاكم منذ أن تولى السيد سعيد أول حاكم وأول إمام في منتصف القرن الثامن عشر، وبقي الأمر كذلك حتى قام حفيد السيد سعيد بنقل عاصمته من الداخل إلى مسقط المدينة الساحلية ، ومع أن هذا النقل كان خطأ سياسي "كما تعتقد القبائل" ارتكبه الإمام بنقله عاصمته إلى مسقط ، إلا إنه كان مبررا بحسبان المزايا التجارية وتسهيل التواصل مع القوى الأجنبية من العرب والأوروبيين ، رغم أن القادة الدينين للمناطق الداخلية وبخاصة المحافظون منهم لا يرون مبررا لهذا النقل. وكردة فعل لذلك بدءوا في انتخاب الأئمة الخاصين بهم ، والذين يتمتعون بنفوذ سياسي كبير وفي الأخير حكم الأئمة مناطقهم الداخلية كدولة منفصلة عن مناطق الدولة العمانية الملتفة حول مسقط . وتدريجيا ، لم يعد ينتخب حكام عمان كأئمة ، واكتفوا بتقلد اللقب المدني " السلطان ".

وعقد سلاطين مسقط معاهدات علاقات سلمية مع البريطانيين وتطورت هذه العلاقات بسرعة بحيث أصبحت ذات مزايا حسنة لكلا الفريقين. وكانت المعاهدة الأولى : هي عبارة عن اتفاقية صداقة عقدت في سنة 1800م . وقد شعر البريطانيون أن هذه الاتفاقية سوف تحميهم من النفوذ والتأثير الفرنسي في عمان ، كما شعر العمانيون أنها تعزز قوتهم وهيبتهم ومكانتهم الدولية ، خاصة وأن نفوذ سلطان مسقط لم يكن مقتصرا على منطقة مسقط بل كان يشمل كلا من زنجبار وبعض مدن ساحل شرق أفريقيا، كما أنه كان يحكم أيضا بعض المناطق على ساحل المرجان في بلوخستان (باكستان الحالية).

وقد أعطى البريطانيون كل ما يستطيعون من دعم وعون للعمانيين خلال الغزوات الوهابية ، كما قام البريطانيون بإخضاع القواسم إخضاعا قسريا وذلك لتأمين الوضع في عمان . وفي سنة 1822م وقع السلطان

العماني المعاهدة الأولى من معاهدات ثلاث وقعت "الأخرتان" في عامي 1839م و 1873م" مع البريطانيين لإيقاف تجارة الرقيق في عمان.

ومع أن البريطانيين كانوا على الدوام أفضل أصدقاء للعمانيين، إلا أن الولايات المتحدة قدمت عروضا أيضا خلال تلك الحقبة . فالأمريكيون خلال تلك الفترة كانوا تجارا مقتدرين، وكانوا يودون عمل بعض الترتيبات بحيث إن تجارتهم التي تمر عبر المياه العمانية لا يفرض عليها ضرائب باهظة. لذلك وصل في سنة 1833م إدمود ريبورت من تجار القطاع الخاص الامريكيين إلى مسقط، حاملا معه تفويضا من شؤون قسم الرئاسة بالولايات المتحدة الأمريكية بإعداد معاهدات تجارية مع العمانيين . ولقد عقد مع العمانيين معاهدة مجدية للتجارة والتفاهم ، وهي أول معاهدة أمريكية أبرمتها أمريكا في المنطقة . وقد استمرت مفعول هذه الاتفاقية ساريا حتى عام 1958م ، حيث استبدلت بنسخة مشابهة لكنها محدثة. ومما تجدر الإشارة إليه أن أول وفد عربي رسمي وصل إلى نيويورك هو وفد عماني وكان ذلك في سنة 1840م .

ولتعزيز العلاقة مع البريطانيين قام السلطان الراحل سعيد سعيد الذي حكم عمان خلال منتصف القرن التاسع عشر بتقديم عدة هدايا لبعض الشخصيات البريطانية ، من بينها جزر خوريا موريا الغنية . وكان البريطانيون في ذلك الوقت يولون الشؤون العمانية اهتماما مما جعل المستشار الإنجليزي في الهند اللورد كاتغ في سنة 1856م، يتوسط بين أبناء السلطان المتشاجرين بعد وفاة السلطان. وتمشيا مع هذه الوساطة منح أحد الأبناء مسقط، أما الابن الآخر فقد منح زنجبار، على أن تدفع زنجبار جزية مقدارها (400.000) ريالا عصمليا لمسقط. غير أن زنجبار توقفت بعد فترة وجيزة عن دفع الجزية . ولكون البريطانيون قد تمكنوا من خلال وساطتهم من حل النزاع ولرغبتهم في المحافظة على تحسين الظروف وبسط الاستقرار في عمان ، والذي ترجم بتوفير المال الكافي لتأكيد نفوذ

السلطان ، فإن حكومة الهند البريطانية ألزمت نفسها بتحمل مسئولية دفع هذا المال ، واستمرت في دفعه حتى التزمت وزارة الخارجية البريطانية بعد ذلك بتحمل هذا العبء في سنة 1947م.

وشهد النصف الثاني من القرن التاسع عشر بداية التدهور للدولة العمانية وبقية دول الخليج . فالسفن المصنعة محليا لم تعد قادرة على الإبحار بحيث تنافس خطوط السفن البخارية الأوروبية ، وأصبح الخليج لأول مرة منذ عدة قرون يعاني من الركود الاقتصادي . والسلطان تركي بن سيد بوسعيد، الذي جاء إلى السلطة بصفة أساسية بالدعم البريطاني ، وقع في سنة 1873م اتفاقية رئيسة تهدف إلى إيقاف تجارة الرقيق . ونظرا لكون كل من تجارة الرقيق وتهريب الأسلحة والذخائر، تعدان الشريانين الوحيدين لقوة الاقتصاد العماني ، فإن هذه الاتفاقية أدت إلى توجيه ضربة قاضية للاستقلال التجاري لعمان . وأصبح السلطان يائسا ومعتمدا على البريطانيين مما عرضه لغضب الأباضيين المحافظين الموجودين في المناطق الداخلية الذين يرون أن اتفاقية تجارة الرقيق تتعارض مع ما جاء في القرآن الكريم حيث يتطلب منعها شروطا معينة ، كما أن هذه الاتفاقية تتعارض مع مصالح قبائل المناطق الداخلية التي تعتمد في بعض اوجه تجارتها على تهريب الأسلحة والذخائر.

ومن الواضح أن البريطانيين كانوا مدركين للصعوبات التي سببوها للسلطان ، مما جعل حكومة الهند البريطانية تقوم في سنة 1895م وسنة 1897م بمنح السلطان العماني قرضين للتخفيف من ازمته المالية التي كان يعاني منها .

وبعد مضي ما يقرب من عقدين من الزمن على هذين القرضين وجد الأباضيون الساخطون، والذين كانوا صامتين لعدة قرون، وجدوا الصوت المعبر في عيسى بن صالح الإمام الذي تم انتخابه في سنة 1913م. وهي نفس السنة التي أصبح فيها تيمور بن فيصل آل بوسعيد سلطانا في

مسقط . فبحلول عام 1915م أعلن محاربو الإمام عيسى الجهاد ضد السلطان وحاصروا مسقط . واستعانت قوات السلطان بمدفعية حكومة الهند البريطانية التي استجابة لطلب المساعدة مما مكن قوات السلطان من طرد عيسى بن صالح. ومع أن السلطان انتصر على خصمه الإمام عيسى إلا أن الثمن الذي دفعه السلطان مقابل هذا الانتصار كان ثمنا غاليا . فقد انحسر نفوذ السلطان على شريط ساحلي ضيق بالقرب من مسقط . وبقيت الأمور على هذه الشاكلة حتى سنة 1920م حيث تم التوصل إلى اتفاقية تلتزم بموجبها قوات الإمام بوجوب عدم مهاجمة المناطق الساحلية الواقعة تحت حماية السلطان، كما يجب على السلطان أن لا يتدخل في الشؤون الداخلية "لسكان عمان".

ومع أن الإمام عيسى بن صالح توفي وتم انتخاب إمام آخر مباشرة بعد وفاته إلا أن الشعور الذي اختمر طويلا ووصل إلى مائدة المعاهدة أصبح حقيقة . فعمان بكل ما تعني الكلمة، أصبحت دولة محكومة من قبل فئتين ، فئة السلاطين وفئة الأئمة الاباضيين . وعليه فإن عمان التي كانت يوما ما رائدة التجارة الدولية بلا منازع، وبعد ذلك تجارة الخليج، دخلت القرن العشرين بموارد مستنزفة ومملكة منقسمة.

التحول الحكومي البريطاني

عندما زاد النفوذ البريطاني في الخليج، تزايدت معه مسؤولياتهم ووجودهم هناك، الذي كان يتطلب إعادة ضبط لإدارتهم هناك. فمنذ منتصف القرن التاسع عشر كانت بريطانيا تتولى بصورة مباشرة مسؤولية رعاية شؤون وكلائها في الخليج وتقوم بأداء المهام ذات العلاقة بهم، لكنها بعد ذلك ظلت ولمدة قرن من الزمان تفوض جهات أخرى للقيام بتلك المهام، فشركة الهند الشرقية، كانت تقوم بالشؤون الدبلوماسية، والدفاعية، والتجارية والإدارية حتى سنة 1873م، حيث تولت المسئولية بعد ذلك حكومة بومباي التي استمرت كذلك فترة طويلة قبل أن تتولى حكومة الهند الشرقية هذه المهام، وظلت تمارس تأدية هذه المهام حتى زوالها كحكومة في سنة 1947م.

واعتبارا من عام 1947 وحتى عام 1971م وهو موعد استقلال الإمارات العربية المتحدة، فقد عالجت وزارة الخارجية البريطانية كل الشؤون الخليجية عن طريق المندوب السامي السياسي في البحرين وعن طريق مكتب الشئون الخارجية في لندن التي أنشأت له بعد ذلك فروعا في البحرين وقطر وأبوظبي ودبي.

ونظرا لكون المعاهدات العديدة التي عقدتها بريطانيا لا يوجد بها شرط يقرر أن هذه الدول يجب أن تكون تحت السيادة البريطانية، وإنما تعطي البريطانيون صلاحية تنظيم وإدارة الشئون الخارجية لهذه المحميات. فإن مثل هذه الشروط وفرت قدرا من الأمان لكل محمية على حدة باتت تحميها من غائلة المنافسين. لكن الشؤون الخارجية عنت الشيء نفسه لعرب الخليج كما عنت للبريطانيين - البحر - ومن ثم فقد كانت أي سفينة عربية على الخليج خاضعة للتوجيه البحري البريطاني.

رغم أن المعاهدات قصرت النفوذ البريطاني والتدخل، على الشؤون الخارجية، إلا أن البريطانيين تعدوا تدريجيا على الحقوق الداخلية للعرب، الذين وجدوا أنفسهم مذعنين للقيود البريطانية والتعرض للمطاردة البريطانية في كل وقت يتحركون ويذهبون فيه للمغامرة بعيدا عن الميناء. هذا التداعي عزز بواسطة العرف أو التقاليد، وإسقاط فكرة المندوب السامي السياسي عن الشؤون الداخلية من الاعتبار يمكن أن يؤدي فقط لتعرض التمرد إلى خطر المقاطعة العسكرية والاقتصادية بل وحتى النفي.

كتب روبرت. جي-لاندن الخبير في الشؤون العمانية الآتي:

عند بداية القرن العشرين أصبح الدعم البريطاني مطلبا أساسيا شديد الأهمية لبقاء اي حاكم في السلطة أكثر من شعبية حكومته بين مواطنيه أو رعاياه. في وقت متأخر جدا حتى سنة 1970م مثل هذه النظرة للحكم غير المباشر ظلت سارية المفعول، مثلا، لعبت بريطانيا دورا كبيرا في الإطاحة

بحكام الشارقة في سنة 1965م، وأبوظبي في سنة 1966م، وعمان في سنة 1970م.

نظام الاستعانة بالمستشار استخدم بصورة واسعة في الخليج. ولقد بدأ في عمان في عام 1920م، عندما نظم البريطانيون قوات المجندين لمسقط وهي قوة أمن داخلية تحت الإشراف البريطاني. وقد شكل نظام الاستعانة بالمستشارين أسس تكوين العديد من الأجهزة والممارسات الإدارية لدول الخليج. وقد قدم المستشارون الأجانب، الذين وظفوا بواسطة الحكام وكانوا في البداية من البريطانيين، الكثير من الاستشارات في الشؤون السياسية والاقتصادية والاجتماعية. ومع أن الحاجة للاستعانة بالخبراء الأجانب استمرت إلا أن اكتشاف النفط زاد من الثقة الذاتية عند العديد من الحكام، وفي بعض الأحيان دون مبرر، وعليه بدأ هولاء الحكام في اتخاذ قراراتهم دون الاستشارة البريطانية المباشرة.

بعد الحرب العالمية الثانية، خصوصا بعد فقدان الهند في سنة 1947م، تغيرت الأولويات البريطانية في مواقفهم تجاه الخليج وبلدانه . فلم تعد المنطقة من الوجهة عسكرية مهمة يلزم الاحتفاظ بها لحماية الإمبراطورية في الهند. ولكن وبسبب النفط، على أي حال، أصبحت المنطقة ذات أهمية اقتصادية قصوى للبريطانيين، وبسبب أن الوضع يثير ذكريات الأيام الخوالي التي عايشها البريطانيون ، فإن فرق الجنود البريطانيين عسكرت في عمان، الشارقة والبحرين. بحلول عام 1960م، فقد كان من الواضح أن البريطانيين خسروا الكثير في الإنفاق أكثر مما كسبوا ليقظتهم واحتراسهم. طبقا لذلك، بدأت بريطانيا تضمن الاستقلال الكامل لدول الخليج. ونتيجة لاستقرار حكم الكويت الداخلي، وأشياء أخرى، كانت الكويت هي الدولة الأولى التي تحقق الاستقلال في 19 يونيو 1961م. في سنة 1968م، أعلنت حكومة العمال في بريطانيا أن "حمايتها" للخليج يجب أن تنتهي في سنة 1971م. أصبحت البحرين مستقلة في 14 أغسطس 1971م، وقطر في 1

سبتمبر 1971م، والإمارات العربية المتحدة في 2 ديسمبر 1971م. رغم أن بعض القوات البريطانية بقيت في عمان، إلا أن الخليج خلا بصورة كبيرة من القوات البريطانية بنهاية 1971م. وهذا لم ينه المصالح البريطانية ولا نفوذها هناك، كما لم يغير جوهريا من الاحترام والصداقة التي يكنها عرب الخليج للبريطانيين.

تطور بلدان الخليج العربية قبل الاستقلال

رغم أن نسبة التغيير الاجتماعي والاقتصادي تصاعدت بشدة بالاستقلال، إلا ان العديد من دول الخليج، باستثناء عمان، أحدثت خطوات صغيرة باتجاه التحديث، وذلك بالرغم من حقيقة أنه بنهاية الحرب العالمية الثانية كان معظمها مجرد قرى صيد فقيرة.

كان تطور ونمو الكويت بعد الحرب العالمية الثانية سريعا، رغم أنها في أواخر الأربعينيات كانت ما تزال مدينة صغيرة مسورة. تم اكتشاف البترول في الكويت في سنة 1938م لكنه لم يستغل إلا بعد الحرب كما أن معظم برامج الدولة الاجتماعية تطورت بعد الاستقلال. وكانت خطوات التطور سريعة جدا بحيث تمكنت الكويت بعد ذلك من تقديم العون الجوهري والنصائح والمشورة المهمة لدول الخليج الأدنى التي لم تستقل بعد. العديد من دول الخليج قامت بتحديث وتطوير نظم الرعاية الاجتماعية لديها، خصوصا التعليم في الكويت.

مبدئيا فقد كان معظم التغير في الخليج والذي حدث في فترة ما بعد الحرب الثانية هو تطوير الجيش الشعبي وقوات الأمن الداخلي .

كان مشروع التجنيد العماني الذي بدأ في سنة 1951م هو الأول من نوعه في الخليج وقد سمى في نهاية الأمر بقوات عمان الكشفية. ومع أن المشروع هو في الأساس فكرة بريطانية برئاسة ضباط بريطانيين متطوعين، إلا أنه خدم كقوة لحفظ الأمن الداخلي قوامها رجال القبائل المحلية. وبحلول عام 1965م بلغ تعداد هذه القوة (1000) رجل تقريبا.

وتعد دبي الأولى من بلدان ساحل الخليج التي كونت قوة شرطة خاصة بها وكان ذلك في سنة 1956م، وتلتها بعد سنة من ذلك أبوظبي. وفي بداية الستينيات تبعت بلدان الخليج الأخرى الركب.

التغييرات التنموية ذات الطبيعة الاجتماعية في دول الخليج بدأها البريطانيون. فقد بدأ البريطانيون يشعرون أنه يجب عليهم أن يضطلعوا بمسؤولية محددة بالنسبة لمشروعات التنمية. لذلك فتحت الحكومة البريطانية مستوصفا طبيا يديره طبيب إيراني في دبي في سنة 1939م. وبعد 10 سنوات بدأت في بناء مستشفى هناك. في سنة 1952م مولت الحكومة البريطانية مسح ميداني متواضع عن موارد المياه وحفر بعض الآبار، كما تم بناء أول مدرسة حديثة في الشارقة في سنة 1955م. ولتلميع النجاح الذي تحقق أعد المندوب السامي السياسي خطة خمسية للتنمية . ومع أن التطورات الإدارية مثل تحسين نظام المحاكم والمباني الحديثة لمجلس دول الخليج، كانت موضع اهتمام إلا أن التطور الأكبر تحقق في المجال الاجتماعي. فبحلول سنة 1961م تأسست مدرسة زراعية بالقرب من رأس الخيمة ومدرسة تجارية في الشارقة، وافتتحت مدرسة معلمي العلوم الطبية في البحرين، كما وسعت مستشفى دبي، وتم بناء أربع مدارس ابتدائية وعدد من المستوصفات، كما بدأت حملة مضادة للملاريا. وقد تراجع هذا التزايد نتيجة لضغط الخطة الخمسية الثانية بسبب بعض الصعوبات الاقتصادية في بريطانيا، لكن في سنة 1963/1962م تم افتتاح مدرسة تجارية مؤقتة في دبي، وتم الحصول على التمويل من رأس الخيمة للتغلب على المشكلات التي نمت في السنوات السابقة.

بحلول عام 1965م كانت دبي وأبوظبي غنيتين بدرجة كافية للاضطلاع بعدة مشاريع رئيسة خططت بواسطة صندوق التنمية، الذي يتكون مجلس إدارته من حكام بلدان ساحل الخليج العربية. وشيئا فشيئا ومنذ الوهلة الأولى وضع عرب الخليج النقود في صناديق التنمية وخصوصا

الكويتيين الذين بدءوا في اتخاذ قراراتهم الخاصة بالنسبة لتحديد أولويات التنمية في بلدانهم . ولكون عرب الخليج ينزعون لبناء المباني ذات المستويات الفخمة والمكلفة فقد بدأوا يتبارون فيها بالرغم من بذل البريطانيين جهودهم لتخفيف حدة هذا النزوع خصوصا في السنوات التي سبقت الاستقلال والتي كانت مهمة فيما يخص الاحتياجات العديدة العاجلة للمنطقة.

نتيجة لتدفق النفط بكميات تجارية بحلول عام 1932م، كانت البحرين أول دولة خليجية يسير فيها التحديث الذي بدأ بحلول عام 1950م. السيد تشارلس بلجراف، المستشار المقيم لحاكم البحرين بين أعوام 1928 – 1956م، كان مسؤولا بشكل كبير عن الأسلوب الفعال الذي أديرت به البحرين. وقد كانت المستويات التعليمية والاقتصادية لمواطني البحرين هي الأعلى في الخليج.

رغم أن البحرانيين تمتعوا بالعديد من مزايا دولة الرفاهية، إلا أنهم لم يستطيعوا ممارسة أي حقوق سياسية تذكر. فقاد عدم الرضى من فقدان المشاركة الشعبية في سنة 1954م إلى تشكيل الحركة الوطنية، لجنة الاتحاد الوطني، وهي اتحاد لكل الطلاب والمثقفين وعمال النفط والحرفيين العرب في البحرين الذين طالبوا بعدد من الإصلاحات تضمنت المطالبة بتطوير الدستور وإنشاء نقابة تجارية، ومجلس تشريعي، وطرد السير بليجراف من الخدمة. وقاد إضراب عام إلى مراجعة وتقصي المظالم وإصدار التعليمات اللازمة لإنشاء مجلس بحيث يكون نصف أعضائه منتخبين يتولى الإشراف على التعليم والصحة. ومع أن الانتخابات عقدت في سنة 1956م، إلا أن التوتر استمر متصاعدا حتى بلغ ذروته أثناء العدوان الثلاثي على مصر في نوفمبر 1956م، حيث انتشرت نتيجة لذلك أعمال الشغب على نطاق واسع. ومع أنه بعد أن استتب الأمن والقانون القضاء على أول حركة سياسية بنفي

قادة الشغب إلى خارج البلد ، إلا أن محصلة هذا الشغب، على أي حال، كانت إزاحة بليجريف وصدور دستور محدود الإجراءات والصلاحيات.

وفي محاولة لإيجاد كيان سياسي حي، رعت بريطانيا في سنة 1951م تأسيس مجلس بلدان ساحل الخليج. أعضاء هذا المجلس هم الحكام السبعة لبلدان الساحل. إعلان بريطانيا عن عزمها على إجلاء قواتها من الخليج والمناطق الأخرى شرق السويس بنهاية عام 1971م، أثار الاهتمام المتجدد بين الشيوخ في إمكانية الفيدرالية. وبتشجيع بريطاني اجتمع حكام بلدان الخليج السبعة وزملاؤهم من البحرين وقطر في دبي في فبراير سنة 1968م وأعلنوا تشكيل اتحاد الإمارات العربية. وتم الاتفاق على أن يتشكل المجلس الأعلى من الحكام التسعة، وعلى أن يتأسس ويعمل على أساس الإجماع. الرئاسة يتم تداولها بشكل دوري بين القادة التسعة. كما يجب على المجلس أن يسن تشريعا، ويشكل السياسات الخارجية والدفاعية والاقتصادية، ويسن القانون الاتحادي الفيدرالي. وتم الاتفاق على أن تصبح هذه الاتفاقية سارية المفعول في 30 مارس 1968م.

أصبح واضحا منذ الوهلة الأول، أن حكام الدول التسع لم يكونوا مستعدين بعد لتطبيق خطط الفيدرالية وبحلول 30 مارس في يوليو 1968م، توصل المجتمعون إلى حل وسط وافق بمقتضاها الحكام على تأسيس مجلس فيدرالي مؤقت وعدد من اللجان الخاصة لدراسة بعض المواضيع مثل العملة المشتركة، النظام البريدي، العلم، والنشيد الوطني.

واصل الشيوخ التسعة اجتماعاتهم من وقت لآخر، كما حققت اللجان المتعددة بعض التقدم في توحيد الخدمات الفنية. وفي اجتماع في أكتوبر 1969م قرر الشيوخ أخيرا تعيين الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان حاكم أبوظبي كأول رئيس لهم كما وافقوا على أن تكون مدينة أبوظبي عاصمة مؤقتة. ولم يتم التوصل بعد ذلك إلى اتفاقات أخرى فيما يخص تعزيز وتجسيد الفيدرالية . ويعد التنافس القبلي التقليدي وغياب الثقة المتبادلة وعدم

قدرة الحكام على التكيف مع المشاكل والمفاهيم التي تتجاوز أصولهم القبلية من أهم الأمور التي أعاقت مجهودات تطوير هذه الفيدرالية الناشئة. كما أن التفاوت في الثروة والسكان والسلطة بين دول الخليج ضاعف من صعوبات تشكيل فيدرالية فعالة. ولقد كانت وجهة نظر حكام الدول الخليجية الأخرى تجاه البحرين تتضمن أن البحرين فاترة الحماس، لأن إيران ما تزال تزعم أحقيتها في البحرين. وبمجرد تسوية المزاعم الإيرانية، طلبت البحرين وضعا مبنيا على التمثيل النسبي للسكان داخل المجلس الفيدرالي المؤقت. وعندما رفضت هذه الفكرة، أعلنت البحرين في 14 أغسطس 1971م استقلالها كبلد منفصل عن أي اتحاد. ومن جهة أخرى لم ينس القطريون الغارات التي كان يشنها العتوب في القرن الثامن عشر والحقد الذي يكنونه ضد العتوب مما جعلهم يرفضون أن يكونوا في وضع أقل قوة من البحرين وعليه فقد أعلنوا استقلالهم في 1 سبتمبر 1971م. وبدأ احتمالية قيام الفيدرالية بين بلدان المجلس تتلاشى . فسكان رأس الخيمة كانوا غاضبين لأنهم أعطوا عملا ثانويا في الشؤون الفيدرالية – بالمقارنة بما كان لهم من ماض رائع – كما شعر سكان رأس الخيمة بالإهانة لعدم تلقي الدعم من دول الخليج الأخرى فيما يخص احتلال إيران لجزر طنب (التي تعود ملكيتها لرأس الخيمة) مما تسبب في عدم تحمسها للانضمام لتلك الفدرالية . كما رفضت رأس الخيمة أيضا الدخول في "اتحاد" الإمارات العربية المتحدة "الفيدرالي" الذي أعلن في 1 ديسمبر 1971م. وهو اليوم السابق لليوم الذي أعلنت فيه الإمارات العربية المتحدة استقلالها عن بريطانيا. لم تدخل رأس الخيمة هذا الاتحاد إلا في عام 1972م.

التطورات الداخلية في عمان

يبدو أن بداية القرن العشرين لم تحفل بتغييرات كبيرة في عمان وبقيت الأمور هكذا حتى عام 1932م، عندما أطيح بالسلطان تيمور لمصلحة ابنه السلطان سعيد بن تيمور آل بوسعيد. وقد رأى أنصار التوجه المدني أن

التوجه الذي يقود به السلطان سعيد السلطنة متخلف، رغم تصادمه مع الأباضيين في الداخل، وذلك لأنه أساسا يفكر بمثل عقليتهم المحافظة. الخصوصية الجغرافية داخل عمان حيث يتحكم أئمة الأباضية جعلت من المستحيل انتخابه إماما من قبل الأباضيين في الداخل، لكن مكتب السلطان المباشر أصبح شديد القرب من الإمامة. القيود الأباضية، طبقت بصرامة، حيث تم منع بشدة الكحول "الخمور"، والتبغ، والغناء، والسينما. كما منعت النساء من الظهور كاشفات علنا ومنعن من الالتحاق حتى بالمدارس الدينية.

لم يكن دافع سعيد واضح تماما. فقد قام بالتأكيد يعمل كل شيء في سلطته لعزل بلده عن التأثير الخارجي أو حتى التداخل مع الأجانب، باستثناء حالات قليلة منها توظيف بعض البريطانيين وكان توظفهم ضرورة استدعتها أعمال الحكومة والقوات المسلحة، والسماح للإرساليات الأمريكية بإدارة المستشفيين الحكوميين. على أي حال، قصرت الإرساليات نشاطها على المجال الطبي المحض. ومنعت تأشيرات الدخول على الجميع ما عدا بعض الاستثناء المحدود لعاملي شركة النفط التي تديرها بريطانيا. ومع أن السلطان تحدث كثيرا مع المقربين له من البريطانيين عن الرغبة في التحديث لكنه كان وباطراد يبتعد عنه . كما لم يشجع التجارة كليا ماعدا التجارة الضرورية لسد أود البلاد ولكميات ضئيلة جدا من المواد التموينية.

ومع أن السلطان كان غير مرغوب فيه من قبل سكان داخل البلاد، إلا أنه رغم ذلك قرر أن مسقط قريبة جدا من التأثير الأجنبي ومن ثم قام بنقل عاصمته إلى صلالة في محافظة ظفار. نظم حظر التجول في كل المدن الرئيسة، كما أغلقت مداخل المدن بعد ساعات قليلة من غروب الشمس. ولأنه كان معارضا بشدة للتعليم إلا أنه وبصعوبة سمح بالعمل لثلاث مدارس للأولاد. الشباب الذين تلقوا تعليما عاليا بالخارج، كانوا يمنعون بصورة متكررة من تجديد تأشيرات دخولهم. ويمكن القول إن سعيد كان يثق في البريطانيين نسبيا أكثر من أي أجانب آخرين وكان مدركا

للحاجة لقادة عسكريين. وعلى هذا الأساس فقد سمح لابنه الوحيد قابوس بن سعيد، للالتحاق بكلية ساندهيرست العسكرية. وعندما أكمل قابوس تعليمه ورجع إلى بلده، وضع تحت الإقامة الجبرية في منزله.

تم انتخاب إمام جديد في الداخل في سنة 1954م، وهذا الإمام ومؤيدوه حاولوا دون جدوى الحصول على اعتراف لعمان كدولة مستقلة في جامعة الدول العربية. وبين أعوام 1954 و 1959م كانت قوات السلطان والإمام في حالة حرب دائمة، حتى ساعد البريطانيون بطلب من سعيد في إخماد الاضطرابات في سنة 1959م ، مما دفع الإمام إلى اللجوء إلى المملكة العربية السعودية، التي ساعدته بنفس الأسلوب الذي كان الوهابيون يمدون به يد العون بانتظام للأئمة ضد سلاطين عمان.

وعلى الرغم من عقدة الخوف والاضطرابات لدى سعيد والعزلة المفروضة على مواطنيه، إلا أن الأفكار الحديثة انتشرت بشدة، خصوصا بين صفوف الشباب، من مصدر غير متوقع وهو المملكة العربية السعودية. وفي 24 يوليو 1970م، قاد ابن السلطان انقلابا أبيضا بمساعدة الليبراليين، أطاح قابوس بأبيه – سعيد – ونفاه إلى بريطانيا حيث مات في سنة 1972م. في سنة 1984 كان العمانيون يرددون باستمرار "نحن قبل قابوس كنا لا شيء". وبكل تأكيد فإن هذه المقولة تلخص حكم أبيه وما جرى في عمان عندما انتقلت أخيرا إلى القرن العشرين في سنة 1970م.